

محمد رجب البيومي

الاصالة في شعر الطبيعة بالاندلس

بقلم محمد رجب البيومي

* * *

قلنا في صدر هذا البحث أننا نتساءل عما اذا كان شعر الطبيعة في الادب الاندلسي موازنا لاخيه المشرقي في القيمة الفنية لم يكد يزيد عنه شيئا ام انه احتذاه بدءا ثم استطاع ان يسير في طريق التقدم الابتكاري خطوات وئيدة واذا فعل ذلك فالى اي مدى سار ؟ وهذا السؤال لا يزال يتطلب الاجابة فيما يختص بالطبيعة الصامتة ! وهي المتبادرة الى الذهن بداهة حين نتحدث عن شعر الطبيعة بالاندلس ! فبماذا نجيب ؟

اذا كان الادب الاندلسي بعامة قد أخذ يستقل ويتميز ، ويدعم كيانه الذاتي منذ عهد الخلافة في زمن الناصر ، فاننا نجعل من أدب هذه الفترة وما تلاها من العصور ، مجال الحديث عن شعر الطبيعة ، فاذا أردنا ان نلتفت الى المشرق اذ ذاك فانا نجده ايضا قد استقل بأخصب عهود الطبيعة في تراثه ! اذ ان البلاط الحمداني بحلب قد جمع حوله من عشاق الطبيعة نفرا غير قليل ! وكاني بهؤلاء ومن جاء من بعدهم راوا المتنبي يسد عليهم منافذ القول في المديح ، وينهض صرحه الشامخ امام سيف الدولة فيكاد يحجب عنه من سواه على كثرتهم الزائدة وجهدهم الحفيل ! واذ ذاك وجدوا في الطبيعة عزاء وسلوى . فانطلقوا يصفون هذه البيئة الترفة الناضرة ! وقد برع منهم من حمل اللواء ، وتقدم الركب ، وهو شاعر الطبيعة الوصاف ابو بكر الصنوبري فتابعه وزاحمه في اتجاهه السرى الرفاء وكشاجم والخالديان والوداواء الدمشقي والزاهي والناشىء والنامي وعبد الحسن الصوري وابو الفرج الببغاء وابنا ورقاء والخباز البلدي والواساني وغيرهم ممن تحدثت عنهم يتيمة الدهر بافاضة واعجاب ! وكان الشعر الحمداني في هذا العصر الذهبي يسطر صفحة ذهبية للادب العربي في القرن الرابع ، ويحدث تأثيره المدوي في شتى الامصار العربية ! اذ كانت دواوين شعراء بني حمدان تصل الى الاندلس ومصر وفارس وبغداد فيعكف عليها الوراقون نسخا ، لتباع بمغريات الاثمان وطالما عقدت مجالس الادب ببغداد في دار الوزير المهلبي ومحافل الشعر بأصبهان في حضرة الصاحب بن عباد وكلها تدور حول شعر بني حمدان .

تقدم الصنوبري شعراء عصره في الهيام بمحاسن الطبيعة ، فاكثر الحديث عنها اكثارا لا يقف عند حد ، حتى لقد قسم القول فيها الى ابواب متميزة ، فباب للروضيات يتحدث عن سحر الحدائق والبساتين وباب للزهريات يصف الاقحوان والسوس والشقيق والبهار والآذريون والنرجس والخيري والنسرين والورد والنيلوفر والياسمين ويقيم المناظرات بين نوع ونوع ويفضل صنفا على صنف ، وقد تقدم ابن الرومي الى نحو ضئيل من ذلك ، ولكنه على يد الصنوبري واضرابه قد أصبح بدعة العصر واسلوب الوصف ! حتىعرف بعض الشعراء بالتعصب لنوع معين من الازهار ، يبدىء في امداحه ويعيد كما عرف الواواده بحب النرجس والسرى الرفاء بحب الورد الاحمر واشتهر ابو بكر الخالدي بوصف شقائق النعمان ! هذا في الزهريات اما الاثمار فما اكثر الحديث عن النارنج والليمون والبطيخ والتين الاسود والتفاح والشمام واما المائيات فما اكثر الحديث عن السحاب والانهار والسواقي والبرك والاسماك والثلجيات واما الفصول فقد ذخر الشعر في الربيع والصيفوالشتاء والخريف ! هذه الاشعار الطبيعية جميعها قد انتقلت الى الاندلس واحدثت اثرها النفاذ !

ونحن حين نقرأ ما لدينا من هذه الاشعار ، نجدها تتشابه وتتقارب فهي تقوم على الصورة الحسية ! ويقل بها ما سميناه بالتعاطف الوجداني ! ولا نكاد نجد فروقا واضحة بين شاعر وشاعر ! فالصنوبري على زعامته قريب مختلط بالسرىالرفاء وكشاجم في منحاهوطبيعةجوه وتقييد انطلاقه ! ولا ادري لماذا اضيق بأشعار الطبيعة الوصفية التي المس فيها اصرار الشعراء على أن تكون اشعارهم نماذج للتطبيقات البلاغية والبديعية ! فهي معرض حسن للتشبيه والاستعارة والطباق والجناس ! ولكن الصورة الناهضة خلف الاستعارة والتشبيه باهتة الملامح ، ضائعة القسمات !

لقد قال الصنوبري كثيرا في الانهار ، واختص نهر (قويق) بأكثر من عشر قصائد ، ولكن احدها لا تبلغ من

نفسي على كثرة صورها الحسية مبلغ البيت الاخير من قوله في هذا النهر وكان يعمر بالماء شتاء ، ويجف صيفا فتصيح فيه الضفادع :

قويق اذا شم ريح الشتاء ... أظهر تيها وكبرا عجيبا
وان اقبل الصيف ابصرته ... ذليلا حقيرا حزينا كئيبا
اذا ما الضفادع نادينه ... قويق قويق ابى ان يجيبا

وابو العباس النامي اطال القول في السحاب وجرى مع شعراء بني حمدان في اوصاف التدفق والانصباب وبكاء المزن وضحك الرياض ! ولكنه ابدع حقا حين قال :

خليلي هل للمزن مقلة عاشق ... أم النار في أحشائها وهي لا تدرى
أشارت الى ارض العراق فاصبحت ... وكاللؤلؤ المتبول ادمعها تجرى
سحاب حكت ثكلى أصيبت بواحد ... فعاجت له نحو الرياض على قبر
فوشى بلا رقم ونقش بلا يد ... ودمع بلا عين وضحك بلا ثغر

أبدع لانه تعدى الصورة البصرية الى استكناه السحابة، ومحاولة استبطانها ،وخلع الحياة عليها! وهذاجيدطريف،

انتقلت هذه الثروة من ادب الطبيعة الى الاندلس ! وادباء الاندلس مولعون بعد بكل شرقي شائق ! وطبيعة بلادهم الزاهرة الناضرة مما يوجب الاحتفاء بهذا اللون واقتفاءه ! بل ان ابن خفاجة وهو اكبر شعراء الطبيعة بالاندلس كان يسمى بالصنوبري تشبيها له بأبي بكر ! وكان فخورا بذلك ، وقد عكف على ديوانه واقتفاه ! ولا نريد ان نقول ان الشاعر الاندلسي كان مقلدا يقتصر على المحاكاة ولكن نريد ان نقول انه وجد عند الصنوبري ما ليس لدى غيره مما يوافق مزاجه ، ويروي أحاسيسه فتشرب روحه ثم انطلق الى اجواء الشعر ليوقع على قيثار جديد !

تقرأ شعر الطبيعة في الاندلس فتأخذ عينك روضة فسيحة ذات ازهار متشابهة وثمار متقاربة ! واغصان مورقة لا تطالعك غالبا بما لا تعهد ، ولكنها تنقل اليك صورة تعرفها ومع ذلك تهش لها وتقف عندها وترحب بها ! وبين هذه المشتبهات المتفقات ترى على ابعاد متفاوتة شيئا طريفا كأنك تراه لاول مرة ، فتسرع خفيفا اليه وتطيل عنده الوقوف !

ترى زهرا متشابها يعجبك بروائه ، وتراه لا يقل عن نظائره ، فهو مما تعهد وتعرف ! ويمثله قول ابن خفاجة :

وكمامة صدر الصباح قناعها ... عن صفحة تندى من الازهار
في ابطح رضعت ثغور اقاحه ... اخلاف كل غمامة مدرار
نشرت بجحر الارض فيه يد الصبا ... درر الندى ودراهم النوار
فحللت حيث الماء صفحة ضاحك ... جذل وحيث الشط بدء عذار
والريح تنفض بكرة لمم الربى ... والطل ينضح اوجه الاشجار
متقسم الالحاظ بين محاسن ... من ردف رابية وخصر قرار
واراكة سجع الهديل بفرعها ... والصبح يسفر عن جبين نهار
هزت له اعطافها ولربما ... خلعت عليه ملاءة النوار

الصورة كثيرة ، والنظم قوي متماسك ، ولكن الشاعر صانع ماهر لم يعطك من عنده الكثير ، وانما قدم لك نموذجا متقاربا مما نعلم ! ولنبعد عنه قليلا الى ابن سهل لنسمعه يقول :

انظر الى لون الاصيل كأنه ... لا شك لون مودع لفراق
والشمس تنظر نحوه مصفرة ... قد خمشت خدا من الاشفاق
لاقت بحمرتها الخليج فالفا ... خجل الصبا ومدامع العشاق
سقطت اوان غروبها محمرة ... كالخمر خرت من انامل ساق

فلون الاصيل يوحي بأنه مفارق مودع ! والشمس عاشقة حزينة تخمش خدها من الاشفاق ثم تسقط في الماء لترى في شفقها الدامي خجل الصبا بين مدامع العاشقين ! تصوير يقترب من الحياة قليلا ، ويكاد ينفخ الروح فيما يصف ! وانه لجيد رائع لو لم يكن سبقه ابن الرومي بقوله المعجز :

وقد رنقت شمس الاصيل ونفضت ... على الافق الغربي ورسا مزعزعا
وودعت الدنيا لتقضي نحبها ... وشول باقي عمرها فتشعشعا
ولاحظت النوار وهي مريضة ... وقد وضعت خدا الى الارض أضرعا
كما لاحظت عواده عين مدنف ... توجع من اوصابه ما توجعا
وظلت عيون الروض تخضل بالندى ... كما اغرورقت عين الشجي لتدمعا
يراعينها صورا اليها روانيا ... ويلحظن الحاظا من الشجو خشعا
وبين اغضاء الفراق عليهما ... كأنهما خلا صفاء تودعا !!

واذا كان فيما تقدم لابن خفاجة وابن سهل ما يذكر بالمتعارف المعهود ، فلنبتعد قليلا عما نعرف ، ولنمض وئيدا الى الطريف الجديد !

نرى الان في الاداب العالية الرفيعة ان النسيب العاطفي لا يكاد يذكر الا من خلال الطبيعة لانها الاطار البديع لصور اللقاء والسمر ! فعلى ضفاف الانهار ، وتحت مشتبك الاغصان ! وفي الليلة القمراء ومع النسيم الهادي الوئيد يحلو تناجي الارواح وتهامس الافئدة وامتزاج النفوس ! ومظاهر الطبيعة هي البريد الامين الذي ينقل عن المحب لواعجه وأحاسيسه فللشربين المتقاطر ، وللشفق الوردي ! وللدر المتجمد في اعالي الغصون ، وللفحات الزهور واختلاج المياه رموز عاطفية تكشف عن معاني حبيسة في نفوس العشاق ! وما أفصحها من رموز تشافه الاحساس وتنقل المعاني دون حروف وكلمات !! وقد وجدنا لدى ابن زيدون وهو العاطفي الصادق اللوعة الجياش الحنين قصيدة في وصف الطبيعة من خلال نوازعه واشجانه تقرب كثيرا من الادب العالي في عصرنا الراهن وما سبقه من عهود الابتداع والتجديد ! وهي خطوة بديعة في ادب الطبيعة العربي ولعشاق الادب الاندلسي ان يعتبروها مظهرا من مظاهر التجديد العاطفي المصور وقد اعتبرها بعض النقاد دليل حيوية ابن زيدون ومظهر ارتقائه الفكري بين معاصريه فهو يقول موجها حديثه لولادة :

اني ذكرتك بالزهراء مشتاقا ... والافق طلق ومرأى الارض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله ... كأنه رق لي فاعتل اشفاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم ... كما شققت عن اللبات أطواقا
يوم كأيام لذات لنا انصرمت ... بتنا لها حين نام الدهر سراقا
نلهو بما يستميل العين من زهر ... جال الندى فيه حتى مال أعناقا
كأن أعينه اذ عاينت ارقي ... بكت لما بي فجال الدمع رقراقا

ورد تألق في ضاحي منابته ... فازداد منه الضحى في العين اشراقا
سرى ينافحه نيلوفر عبق ... وسنان نبه منه الصبح احداقا
كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا ... اليك لم يعد عنها الصدر ان ضاقا
لا سكن الله قلبا عن ذكركمو ... فلم يطر بجناح الشوق خفاقا
لو شاء حملي نسيم الصبح حين سرى ... وافاكمو بفتى اضناه ما لاقا
لو كان وفي المنى في جمعنا بكمو ... لكان من آكرم الايام اخلاقا
كان التجاري بمحض الود من زمن ... ميدان انس جرينا فيه اطلاقا
فالآن احمد ما كنا لعهدكمو ... سلوتم وبقينا نحن عشاقا !

فهذه الصرخة اللهيفة قد ارتفعت على جناح الطبيعة الى افق وضيء ! اذ يتضاءل جوارها اكثر ما نعهد من الوصف البصري الذي يقف عند الجزئيات دون ان يفرغها في روح كلي عام ! وهي شبيهة بما نجده لدى شلي وتينسون ووولر من كبار شعراء الانجليز بل انها لتذكرنا بمثل قول شلي : « ان رجع الالحان بعد خفوت الصوت يبقى مرددا في الافئدة ، ولنشر البنفسج بعد موته طيب في الانوف ، واوراق الورد بعد ذبولها تنثر على فراش الحبيب ، وهكذا ذكرياتك تظل بعد ذهابك ماثلة !! » تماما والله كما خلدت ذكريات ولادة في الزهراء ينفح بها النسيم في الروض المبتسم عن مائه الفضي ويعبر عنها الندى الجائل في احداق الزهر حتى مالت منه الاعناق ! والورد الابيض المتفتح في الضحى تفتحا زاد ضوء النهار اشراقا اي اشراق !

ولا أدري لماذا تذكرني هذه القصيدة الفريدة بأخت لها قالها ابن خفاجة شاعر الطبيعة بالاندلس والقصيدتان ليستا في موضوع واحد حتى يجوز لي ان اعقد الشبه بينهما بهذه السهولة ! ولكن اختلاف الموضوع لم يمنع اتفاق الاطار ، والاطار ها هنا هو الطبيعة المفتان ! فقد نزل ابن خفاجة ايكة غناء فذكرته عهده بالانس مع حبيبة فقيدة ودعت الحياة ! وقد هاجت الذكرى شجونه فبكى! وجعل النسيم يراوحه فينشقه متحسرا ، ولكنه لا يجد العبق الذي كان يعهده مع حبيبته ! وقطع الشاعر يومه بالايكة ، فلما همت الشمس بالمغيب وعلت وجه النهار كآبة كابية تذكر مغيب حبيبته بمغيب الشمس فسارع الى قبرها باكيا ! بالله ان الطبيعة هنا ذات روح غير معهود في اكثر ما نظم شاعرها الكبير ! فالايكة والريح والارج ومغيب الشمس ! كل ذلك ممتزج بعاطفة اخرى تهز كيان الشاعر وتقوده قسرا في الظلام ، وهناك يصرخ صرخته اليائسة ويتساءل عن اللقاء الموعود متى واين بعد ان صدعت الشمل ايدي الحوادث !! انه يقول :

الا أذكرتني العهد بالانس ايكة ... فاذكرتها نوح الحمام المطوق
وأكببت ابكي بين وجد أناخ بي ... حديث وعهد للشبيبه مخلق
وانشق انفاس الرياح تعللا ... فاعدم فيها طيب ذاك التنشق
ولما علت وجه النهار كآبة ... ودارت به للشمس نظرة مشفق
عطفت على الاجداث اجهش تارة ... والثم طورا تربها في تشوق
وقلت لمغف لا يهب من الكرى ... وقد بت من وجد بليل المؤرق
لقد صدعت ايدي الحوادث شملنا ... فهل من تلاق بعد هذا التفرق
وان تك للخلين ثم التقاءة ... فياليت شعري اين أو كيف نلتقي

بعض الناس لا يعتبر هذه القطعة الفذة من شعر الطبيعة، وربما فضل عليها قصيدة كقصيدة ابن خفاجة :

لله نهر سال في البطحاء ... اشهى ورودا من لمى الحسناء !
متعطف مثل السوار كأنه ... والزهر يكنفه مجر سماء

ولكن الذين يعلمون ان الطبيعة ملهم مؤثر ! ومذكر يقظ بشجون الامس ، وسوالف العهد يعرفون كم كان الشاعر موفقا في استلهامها ! واظنه نظم هذه الابيات في سهولة متيسرة حيث لم تجبره على انتزاع الصور البيانية من تشبيه واستعارة ليثقل بها حديثه ـ كعهدنا به ـ وانما انطلق مع طبعه في غفوة من سيطرة التصوير الحسي لينقل عن خاطره دون تكلف ! ولقد كان ابن خفاجة مغرما بالطبيعة حقا! ولكنه معذلك كان مغرما بأن يقال انه شاعر الطبيعة الاندلسي ! فكان يكثر متعمدا من شعر الطبيعة دون موجب ملح ! مات بعض اصدقائه فرثاه بقوله :

في كل ناد منك روض ثناء ... وبكل عين منك جدول ماء
ولكل شخص هزة الغصن الندي ... غب البكاء ورنة المكاء

وهذا تلفيق ذهني مفتعل ما كان اغنى ابن خفاجة عن نسجه لو لم يعلن بنفسه انه شاعر الطبيعة فلا بد أن يتحدث عنها في الرثاء ! مع ان عاشق الطبيعة يتحدث عنها عفوا دون سبق الاصرار ! يتحدث عنها في كل غرض من نسيب ورثاء ووصف وعتاب وحكمة فترى روحها تملأ الابيات ، وتطالعك شفافة رفافة من خلال الفكر والتصاوير ! اما أن يتعمدها الشاعر تعمدا في الرثاء فهذا ما يوحي انها الاصل وان الميت لا يساوي عند صاحبه شيئا ! ولكن المجال مجال اظهار عبقرية شعرية يتوق ابن خفاجة ان يتحدث بها الناس !! كانت جريدة الاهرام تنشر اثناء الحرب العالمية الثانية وما قبلها بقليل مقطوعات في وصف الطبيعة بالريف المصري بامضاء شاعر البراري ، وهو ـ رحمه الله ـ صديق مخلص ، وقد زرته مصادفة يوم وفاة جبرائيل تقلا صاحب الاهرام ، فقال لي انه سيرثي الفقيد ولكن بأسلوبه الخاص ! فاستفسرت عن مراده فقال : لقد عهدني قراء الاهرام اكتب عن الورد والياسمين والنهر فلا بد ان يكون رثائي كذلك ! وسترى براعتي ! وهكذا قال ، ثم نشرت الاهرام بعد ذلك من رثائه ما لا يخرج عن قوله ان الندى قد انقطع فمال الياسمين الى الارض ليعزيها ! ولو كانت الابيات لدي لذكرتها! ولكني تذكرتها الان وحين قرات ابيات ابن خفاجة في رثاء صديقه !! لان المنزع واحد بين الرجلين على اختلاف الزمان والمكان !

وسننصف ابن خفاجة انصافا يرتفع به عن شعراء الطبيعة لعهده حين نذكر حديثه عن القمر والجبل ! فقد كان اذ ذاك شاعر الطبيعة بحق ! انه لم ينظر الى القمر في اكتماله فيراه قرصا من لجين ! ولم يتذكر طفولته وهو هلال بعد فيعده زورقا من فضة قد اثقلته حمولة من عنبر ! ولم ير شحوبه قبل المحاق فيراه حسناء مريضة

طال عليها الهجر كما نسمع من بعض الشعراء ! ولكنه يصيخ الى نجواه ويتمنى ان يحادثه في سمائه عن شجونه وآلامه ! ويقول انه لو تحدث لحاز الجمالين من خبر ومن خبر وان سكت فانه صاحب الصمت البليغ الواعظ وان بكى فعن شجو يفجر عين الماء بالحجر ! استلهام بديع حقا ومحاولةشاعرية لفهم هذا الكوكب المتالق! واستبطان عميق لمشاعره ، ونبش حصيف عن خوافيه يفصح عنه قول الشاعر :

لقد أصخت الى نجواك من قمر ... وبت ادلج بين الوعي والنظر
لا أجتلي ملحا حتى أعي ملحا ... عدلا من الحكم بين السمع والبصر
وقلا ملأت سواد العين من وضح ... فقرط السمع قرط الانس من سمر
فلو جمعت الى حسن محاورة ... حزت الجمالين من خبر ومن خبر
وان صمت ففي مرآك لي عظة ... قد أفصحت لي عنها السن العبر
قمر من ناقص طورا ومكتمل ... كورا ومن مرتق طورا ومنحدر
والناس من معرض يلهو وملتفت ... يرعى ومن ذاهل ينسى ومدكر
تلهو بساحات اقوام تحدثنا ... وقد قضوا فمضوا آنا على الاثر
فان بكيت وقد يبكي الخليل فعن ... شجو يفجر عين الماء في الحجر !

هذه نفثة شاعر طال عهده بالطبيعة ومارس القول في افانينها المختلفة مقلدا تارة ومبتكرا تارة اخرى حتى استطاع بعد لاي ان ينفذ الى اللباب من جوهر الاشياء وان يرى في المظاهر الخارجية دلائل سافرة عما يستكن تحتها من معان ورموز !! وربما كان ابن خفاجة على استعداد ان يبدع في هذا المجال لو راى من ناقدي عصره من يشد على يديه ويهنئه بمنهجه الجديد ! ولكن طبيعة الجو الادبي اذ ذاك لم تكن تسمحبوجود هذاالناقدالحصيف، على ان بواعث الاستبطان كانت لدى الشاعر في وقت ما من اوقات حياته اقوى واعمق من ان يتشاغل عنها بالاوصاف الحسية دون تأمل واستشفاف ، فقد وقف ابن خفاجة أمام الجبل مرتين ! فكشف له في الاولى عن بعض سره حين قال عنه في ايجاز :

وصهوة عزم قد تمطيت والدجى ... مكب كأن الصبح في صدره سر
واشرف طماح الذؤابة شامخ ... تمنطق بالجوزاء ليلا له خصر
وقور على مر الليالي كانما ... يصيخ الى نجوى وفي اذنه وقر
تمهد منه كل ركن ركانة ... فقطب اطراقا وقد ضحك البدر
ولاذ به نسر السماء كانما ... يحن الى وكر به ذلك النسر
فلم ادر من صمت له وسكينة ... أكبرة سن وقرت منه ام كبر

اما الوقفة الثانية فلا نرى من شعراء العربية الى الان من حاول ان يأتي بابداعها البليغ ، فقد استطاع ابن خفاجة ان يتسمع صوت الجبل عن رهافة اذن ولطافة حس ، فحدثه الطود باكيا متأثرا ، ذاكرا تاريخه الحافل مذ كان ملجأ لقاتل او موطنا لناسك عابد ، ومذ بات فيه المدلجون بالليل واستظل بجنابه المقيلون بالنهار ! فالفهم والفوه واستطاب مقامهم واستطابوه فما خفق ايكه الان غير اضلع راجفة وما نوح حمائمه غير صرخة نادب يبكي فراق احبته فالى متى يبقى ليستقبل حبيبا ثم يودعه بعد حين والى متى يبقى ليرعى الكواكب فمن طالع اخرى الليالي وغارب !! لقد نقل الشاعر حديث الجبل فسحر الناس وادهشهم حين قال :

وأرعن طماح الذؤابة باذخ ... يطاول اعنان السماء بغارب
يسد مهب الريح عن كل وجهة ... ويزحم ليلا شهبه بالمناكب
وقور على ظهر الفلاة كأنه ... طوال الليالي مفكر في العواقب
يلوث عليه الغيم سود عمائم ... لها من وميض البرق حمر ذوائب
اصخت اليه وهو أخرس صامت ... فحدثني ليل السرى بالعجائب
وقال ألا كم كنت ملجأ قاتل ... وموطن أواه تبتل تائب
وكم مر بي من مدلج ومؤوب ... وقال بظلي من مطي وراكب
ولاطم من نكب الرياح معاطفي ... وزاحم من خضر البحار غواربي
فما كان الا ان طوتهم يد الردى ... وطارت بهم ريح النوى النوائب
فما خفق ايكي غير رجفة اضلع ... ولا نوح ورقى غير صرخة نادب
وما غيض السلوان دمعي وانما ... نزفت دموعي في فراق الصواحب
فحتى متى أرعى الكواكب ساهرا ... فمن طالع اخرى الليالي وغارب
فرحماك يا مولاي دعوة ضارع ... يمد الى نعماك راحة راغب
فاسمعني من وعظه كل عبرة ... يترجمها عنه لسان التجارب
فسلى بما أبكى وسرى بما شجا ... وكان على عهد السرى خير صاحب
وقلت وقد نكبت عنه لطية ... سلام فانا من مقيم وذاهب !

تعد هذه القصيدة ذروة اكتمال شعر الطبيعة في الاندلس ! وقد بلغ التشخيص فيها مبلغا لا نجده الا عند كبار الشعراء في الشرق والفرب ! ولو ذهب جميع ما قال ابن خفاجة ، وبقيت وحدها لكانت معجزة ابداعه ودليل تفوقه ! بل ربما ظننا ان جميع شعره من هذا الطراز ! وقد وجد من يقول ان ابن خفاجة قد استلهم قول المجنون في جبل التوباد :

وكبرت للتوباد حين رأيته ... وكبر للرحمن حين رآني
فقلت له قد كان حولك جيرة ... وعهدي بذاك الصرم منذ زمان
فقال مضوا واستودعوني زمانهم ... ومن ذا الذي يبقى على الحدثان

وهذا بعيدا لان قول المجنون خطرة عابرة ، لو وقف عندها ابن خفاجة ما بلغ هذا النفاذ ! اما قصيدة الجبل فنسق شعري متكامل ذو شعاب وافانين .

ولو كان المجنون – على سبيل الاحتمال – موحيا موجها ، لكان لابن خفاجة فضل اثير ان يكون موضع هذا الايحاء ، وقد عبرت القرون خلف المجنون وتوالى عشرات الشعراء في العربية شرقا ومغربا دون ان يبدع احدهم في وصف الجبل ما أبدع ابن خفاجة !! فيأتي بهذاالبيان.

هل لنا ان نقول في ختام هذا البحث ان شعر الطبيعة بالاندلس قد خطا نحو التجديد خطوة اولى مع ابن زيدون وخطوة ثانية مع ابن خفاجة فأتحف الادب العربي ببعض الطريف من الجديد !!

محمد رجب البيومي — **الفيوم – دار المعلمات**

طبقة الفهماء

بقلم حسن الكرمي

من « العروة الوثقى » في لندن

* * *

كانت الغاية في الاصل من كتابة هذه المقالات تحت عنوان « طبقة الفهماء » شرح الادوار التي لعبها المفكرون intellectuals عامة والفهماء intelligentsia خاصة في تاريخ العالم على العموم وفي التاريخ العربي على الخصوص قديما وحديثا . وما بدات في الكتابة حتى شعرت بالاضطرار الى الدخول في موضوعات ليست من صميم البحث ولكنها اساسات لا يفهم البحث الا بها . فتعرضت للفلسفة الاغريقية القديمة وبعض فلاسفة القرون الوسطى، ثم لما اتيت الى بحث الوضع الانساني بعد الثورة الصناعية وجدت نفسي مضطرا الى التعرض لقضية الانسلاخ alienation ولفلسفة هيكل وماركس ، ثم من هيكل الى كيركيكور ، ودخلت في بحث الوجودية ولا ازال فيه . وهذا التنقل من موضوع الى موضوع على هذه الصورة قد يكون مدعاة الى الانتقاد ، وقد يكون المنتقد على حق من جهة وعلى غير حق من جهة اخرى . فان من يتعرض لبحث الحركات الفكرية في الغرب لا بد ان تتجلى امامه حقيقة لا مراء فيها وهي ان هذه الحركات سلسلة مترابطة الحلقات لا يمكن فهم واحدة منها الا بفهم الحلقة السابقة لها ، وفهم هذه الحلقة مرتهن بفهم سابقتها ، وهكذا ، ففهم الفلسفة الوجودية يقتضي فهم الحركات الفكرية في الغرب ليس فقط في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، بل في القرن الثامن عشر والقرن السابع عشر ايضا ، حتى الى افلاطون. ولذلك قال وايتهد الفيلسوف الامريكي المشهور (١٨٦١ — ١٩٤٧) عن الفلسفة الغربية بانها سلسلة من التعليقات على فلسفة افلاطون . وقال بركسون الفيلسوف الفرنسي (١٨٥٩ — ١٩٤١) ان تاريخ الفلسفة الغربية في جوهره عبارة عن تنشئة وتطوير للفلسفة الافلاطونية . و هايدكر الالماني (١٨٨٩) يرى مثل هذا الراي في مقالته عن عقيدة افلاطون عن الحقيقة . فافلاطون في راي بركسون جمد الحقيقة بدلا من ان يراها سلسلة او سيلا من التغيرات . وهو في راي هايدكر مسئول عن جعل الحقيقة مستقرة في الذهن بدلا من ان تكون موجودة في كينونة الانسان . وهذا راي لا يستغرب من احد اساطين الفلسفة الوجودية .

وهذا على ما اعتقد دليل على تماسك حلقات الفلسفة الغربية وترابطها منذ القديم حتى الان . فانك لا تستطيع فهم فلسفة عصر من العصور فهما صحيحا اذا كنت لم تفهم فلسفة العصر السابق او العصور السابقة . فالفلسفة الوجودية مثلا رد فعل للفلسفة المثالية idealism من جهة وللوضع الانساني الحائر في المجتمع الغربي الحديث من جهة اخرى . فلا بد للناظر في الفلسفة الوجودية من معرفة الفلسفة المثالية اولا ، وهذا يسوق الى معرفة الفلسفة في القرنين السابع عشر والثامن عشر حينما كان العلم النظامي متقدما وحينما كانت تبنى الفلسفة على الرياضيات ، وهذا بدوره يسوق الى معرفة الفلسفة قبل ذلك وفي القرون الوسطى وهكذا . ثم ان الفلسفة المثالية في اوروبا كانت في القالب بدافع ديني ، وغرضها الاول القضاء على المادية واقرار مبدأ اساسي وهي ان الحقيقة ليس لها وجود خارج عن العقل البشري وانما هي من صنع هذا العقل فقط ، اي ان الاشياء التي نراها ونشعر بها في هذا الوجود ليس لها حقيقة ولا هي موجودة بالفعل ، وانما هي خيال في خيال. وكان من زعماء هذه الفكرة الفيلسوف البريطاني باركلي (١٦٨٥ — ١٧٥٣) وكان من كبار رجال الكنيسة . فهذه الفكرة لا يمكن ادراك قيمتها الا بفهم الحركة العلمية الجديدة في القرن السابع عشر ، لانها كانت بتاثير الدين رد فعل لهذه الحركة . ثم انه لا بد ايضا من دراسة الطريقة العلمية ودراسة الفلسفة الظاهرية phenomenalism معها ، واهم من ذلك دراسة الفلسفة الواقعية realism بصورة عامة ودراسة فلسفة الحس العام وغير ذلك . وهنا ينتقل البحث الى فلسفة هسرل الوصفية phenemenology التي كانت حلا وسطا بين الفلسفتين الكبيرتين المثالية والواقعية وحلقة الوصل بين كيركيكور والفلاسفة الوجوديين ، وهكذا وهلم جرا ، الى ان يصل الانسان في البحث الى الفلسفة الماركسية والفلسفة الوجودية والفلسفة اليقينية المنطقية Logical positivism التي تزعمها وتكنشتاين وغيره من طبقة فلاسفة فينا في النمسا . وهنا يصل الانسان الى انصراف الفلسفة عن الموضوعات القديمة والعكوف على التحليل المنطقي واللغوي بصورة معقدة . ومن هنا يلاحظ ان الوجودية واليقينية المنطقية رد فعل للاتجاه الفلسفي السابق ، ومنه يلاحظ ايضا كيف ان الفلسفة في جميع ادوارها عبارة عن اراء تسود مدة من الزمان ثم يخلفها اراء مخالفة لها . وهكذا الى ان وصل الحال في الوقت الحاضر الى الاعتقاد بافلاس الفلسفة عموما .

وعلى كل فان الباحث في اية حركة فكرية غربية لا بد له من الوقوف على الحركات السابقة والملابسة لها ، بالنظر الى الترابط الوثيق بين الحركات الفكرية . ولهذا السبب ارجو ان يجد القراء لي عذرا اذا انا ضللت في شعاب هذه الحركات . وخرجت عن المحجة وسلكت بنيات الطريق . ولا بد لي من ان استميح عذرا من القارىء في ان يوسع صدره مرة اخرى فيقرا لي بحثا او بحثين في

نواحي الحركة الفكرية الغربية قبل ان اعود الى بحثي في الوجودية . وكنت في المقال السابق قد عرضت صورة عن الفلسفة الظاهرية Phenomenalism ولم تكن هذه صورة واضحة ، ولذلك فاني عارض في هذا المقال تكملة لذلك البحث ، لان معرفة ذلك تعرض لنا صورة من اهم صور الفكر الفلسفي الغربي . وابدأ بالفيلسوف الفرنسي كونت (١٧٩٨ – ١٨٥٧) صاحب الفلسفة اليقينية Positivism

كان اوكوست كونت المذكور في زمان تضاربت فيه الاراء الفلسفية . فكان بعضهم ينكر ان يكون للاشياء حقيقة خارجية في الكون ويرى ان الحقيقة في الذهن وحده ، وهم المثاليون . والبعض الاخر يرى رأيا مشابها لراي اللاادريين Agnostics ويقول ان الاشياء وان كانت مدركة بالحس فانها في حقيقتها تعتمد على شيء خارج عن طبيعتها لا يمكن الوصول الى معرفته ، وهؤلاء هم التجريبيون Empiricist . وفريق ثالث ينكر وجود اي شيء خارج عن طبيعة الاشياء ويرى ان التفكير في امور متافيزيكية هو من بقايا الماضي العتيق ، وهؤلاء هم اليقينيون positivism ، ومنهم فيلسوفنا كونت الذي نحن بصدده . ويقف في الوسط بين هؤلاء وهؤلاء جماعة الفلسفة الظاهرية phenomenalism فانهم يؤمنون بوجود الاشياء الواقعة تحت الحس ولكنهم يشترطون لهذا الوجود ان يكون تطابق وتوافق بين القوانين الطبيعية . وسنشرح ذلك .

لم يكن كونت في الاصل فيلسوفا بالمعنى الصحيح ، وانما كان دارسا للتاريخ ولا سيما تاريخ العلوم المختلفة . وتوصل بهذه الدراسة الى استنباط بعض الافكار التي كان هو يعتقد بانها دستور لتطور الفكر البشري ، لا في ميادين العلوم المختلفة فحسب بل وفي نشوء الانسان الفرد من الطفولة والحداثة الى سن الاكتمال . وقسم هذا التطور الى مراحل ، فالمرحلة الاولى هي المرحلة النفسية Animism التي يتصور فيها الانسان ان لكل شيء نفسا ، او روحا يحيا بها ، وان الحوادث الطبيعية تجري بفعل هذه النفس او الروح . فكما ان الانسان من تجربته الخاصة لا يتحرك له عضو ولا يقوم بعمل الا بدافع داخلي من نفسه ، فكذلك الشجرة مثلا اذا تحركت اغصانها او الماء اذا جرى في مجراه او المطر اذا سقط من السماء لا بد لكل منها من وجود محرك فيها كوجود النفس او الروح في جسم الانسان . وهذا التفكير من خصائص الانسان البدائي ، بل هو من خصائص الاطفال والاولاد ، كما يلاحظ حينما يحادث الطفل لعبته او يغضب عليها . وفي هذه المرحلة الفكرية نشأت الاديان في نشأتها الاولى ، على راي كونت ، حينما كان الانسان يصور القوى الطبيعية باشكال وصور بشرية ، ويعطي الاله او الالهة الوثنية صورا انسانية واوصافا هي اقرب ما تكون الى طبيعته . وهذه هي المرحلة الدينية . ولكن الانسان في تطوره الفكري ينتقل الى مرحلة اخرى هي المرحلة الميتافيزيكية ، حينما اخذ الانسان في تطوير القوى المحركة للاشياء في هذا الكون من صورها الشخصية البشرية الى صور مجردة ، واخذ يتكلم عن وجود قوى على شكل افكار مجردة كالكلام عن الماهيات وعن حقائق ذهنية خارجة عن الاشياء نفسها ، وصار يقول بالمثل العليا كما قال افلاطون وبالصفات الكلية كالشجاعة والانسانية والعدالة وغير ذلك كما قال ارسطو . وتنقضي هذه المرحلة وتحل محلها المرحلة اليقينية او العلمية ، وفيها يقلع الانسان عن تفسير الحوادث بتفسيرات ميتافيزيكية خارجة عن الاشياء نفسها ، وينصرف الى اكتشاف القوانين الطبيعية عن وجود الاشياء كما هي وعن ترابط الحوادث بعضها ببعض .

هذه هي المراحل الثلاث لتطور الفكر البشري ، وقد اطلق كونت على قانون التطور هذا اسم « قانون المراحل الثلاث » ، واورد للتمثيل عليه استشهادات عديدة من تواريخ العلوم المختصة . ومن ذلك تاريخ علم الفلك ، فان هذا التاريخ بدأ بافكار وخيالات خرافية عن النجوم والسيارات والشمس والقمر خاصة والصاق ارواح او نفوس بها ، ثم انتقل الى المرحلة الدينية في اعطاء هذه النجوم صفة الالوهية ، ثم آل الامر الى الاعتقاد بان للنجوم تأثيرا في حياة الانسان ومجرى معيشته ، ومن ذلك نشأ علم التنجيم وظل سائدا مدة طويلة من الزمن ، الى ان جاء علم الفلك الصحيح ونقض هذه الافكار جميعها الا ما كان من افكار لا تزال عالقة في اذهان كثيرين حتى الان . وفي تاريخ العرب ، في جاهليتهم واسلامهم ، شيء كثير يدل على هذه المراحل الثلاث ، ومع ان الاسلام نفى ان يكون للنجوم علاقة بمصير الانسان على الارض او ان للظواهر الفلكية تجاوبا مع الحوادث البشرية كما جرى في حادثة موت ابراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم ، غير ان العرب ، تحت تأثير ما ورثوه عن الفرس واليونان من افكار ومعتقدات فلكية ، ظلوا يؤمنون بتأثير النجوم ، وظهر بينهم عدد من المنجمين المشهورين ، وكتب كثيرون منهم في ذلك كاخوان الصفا مثلا .

ولا شك ان التفاعل بين العلم والفلسفة كان له اكبر الاثر في تجدد الافكار والنظريات في القرن السابع عشر وما بعده في اوروبا ، كما كان للتفاعل بين الدين والفلسفة في القرون الوسطى . فنظرية كوبرنيك في الفلك ونظرية نيوتن في الجاذبية الارضية ، ونظرية دارون في النشوء والارتقاء حولت المجرى الفلسفي البحث وعملت على ايجاد نظريات فلسفية جديدة في اكثر من ميدان واحد . لنأخذ مثلا نظرية النشوء والارتقاء وهي احدث النظريات التي ذكرناها . فهذه النظرية ، كما هو معلوم ، ترتكز على مبدأين اساسيين وهما : (١) التطور والترقي من البسيط الى المركب و (٢) بقاء الاصلح . فالمبدأ الاول ادى مثلا

الى نظرية فلسفية جديدة وهي نظرية ماخ (١٨٣٨ — ١٩١٦) المعروفة باسم « اليقينية الانتقادية » والتي كان لها تأثير كبير في نظرية « اليقينية المنطقية » لفلاسفة فينا المتأخرين التي اشرنا اليها . هذه النظرية ترى ان الفكر البشري عبارة عن تكييف ومواءمة كما يتكيف الحيوان او النبات بحسب المحيط ويتواءم معه ويتطور وينمو كما هي سنة النشوء والارتقاء الطبيعية . فالافكار في الاصل عبارة عن احساسات بالاشياء ، تأتلف وتترابط بعضها ببعض بصورة تزداد دقة واكتمالا . ولهذا فان ماخ ينكر الافكار الميتافيزيقية ، لان هذه الافكار من طبيعتها ان تكون منتزعة بطريقة التجريد من الاشياء المحسوسة . لنأخذ مثلا فكرة (الشجرة) ، فان هذه الفكرة ليس لها وجود منفصل عن الاشجار ، ولا يوجد شيء مثالي او صورة مثالية تسمى (شجرة) ، وكذلك فكرة (الشجاعة) فانها لا وجود لها ، لان الذي له وجود هو شجاعة فلان او فلان فقط . ثم ان الانسان في هذا العالم عبارة عن افراد ولا وجود لتلك الصفة المثالية التي يسميها فلاسفة الاغريق (الانسانية) . ولا وجود ايضا لفكرة (الماهية) ، بمعنى ان كل شجرة فيها ماهية الشجرة، وان كل شجرة تشترك في صفة (الشجرية) وهكذا . جميع هذه الصفات المجردة عن الاشياء المحسوسة هي اعتبارات ميتافيزيقية وليس لها وجود الا في الذهن فقط.

ولذلك فان ماخ يتفق مع كونت في الفلسفة اليقينية . والفرق بين الاثنين هو ان كونت يرى ان التفكير الميتافيزيقي الذي يعتقد بوجود افكار خارجة عن الاشياء المحسوسة ليس الا من بقايا العهد البدائي في تاريخ الانسان ، ولا بد للانسان من ان يطرحه في نموه العقلي التطوري . اما ماخ فانه يعتبر التفكير الميتافيزيقي من امراض العقل التي تقضي على التفكير وتمنع الانسان من ان يتلاءم مع محيطه .

وادت النظرية الداروينية الى فلسفة اقتصادية واجتماعية ، مهد اليها الفيلسوف الانكليزي هربرت سبنسر (١٨٢٠ — ١٩٠٣) وسميت هذه «الداروينية الاجتماعية» وتتلخص هذه في ان المجتمع كالكائن الحي ينمو ويتطور بحسب نظرية النشوء والارتقاء وان الافراد فيه في نزاع دائم حبا في البقاء ، فالاصلح في هذا هو الذي يحق له البقاء . فالنظرية الجديدة اذن ترى المجتمع كما لو كان ساحة للقتال او للصراع ، فالقادر على الصراع بذكائه او دهائه هو اجدر بالبقاء والتقدم من غيره . ومعنى ذلك ان المجتمع يجب ان يترك على طبيعته ، يعمل فيه مبدأ بقاء الاصلح ، فتتقدم فيه جماعة دون جماعة ، ويحق حينئذ للجماعة المتقدمة بأن تحكم وتسيطر ، وعلى الجماعة المتأخرة ان تخضع لهذا الحكم وهذه السيطرة ، بدون شكوى لان هذا هو المقدر لها . وكانت هذه النظرية تدعيما للفكرة الاقتصادية الاجتماعية المعروفة في اوروبا وامريكا باسم Laissez-Faire والتي ظهرت اول ما ظهرت على ايدي جماعة من الكتاب السياسيين والاقتصاديين في فرنسا عرفوا باسم فيزيوكرات Physiocrats في اواخر القرن السابع عشر وفي القرن الثامن عشر كانوا يقولون ان النظام الطبيعي للحرية هو ان يترك الفرد في المجتمع يسير كما توحي اليه مصالحه الخاصة لان هذه المصالح في النتيجة تؤدي الى صلاح المجتمع بأجمعه وكانوا يقولون ان الدولة ليس لها ان تنفذ من القوانين والانظمة الا ما كان منها يحافظ على هذا النظام الطبيعي فقط . وما زاد على ذلك فهو افتئات من الدولة وتجاوز منها . ولا يخفى هنا ان معنى هذه الفكرة هو ان يترك الناس يتصارعون في ميدان الحياة فمن بز عز ومن نجح فقد غلب وتسيطر ، وان معناها ايضا ان الفقيد هو الذي قصر في الميدان فيجب ان لا تلوم الا نفسه كما كان يقول الكاتب الانكليزي الاقتصادي مالتس (١٧٦٦ — ١٨٣٤) . ولا يخفى ايضا ان هذه الفكرة Laissez-Faire كانت قد انتشرت وتمكنت في فرنسا وبريطانيا قبل ان تنتشر نظرة داروين (١٨٠٠ — ١٨٨٢) عن النشوء والارتقاء لان كتاب عن اصل الانواع ظهر في ١٨٥٩ وكتابه عن اصل الانسان في ١٨٧١ . ولذلك يصح ان يقال كما قلنا آنفا ، ان نظرية النشوء والارتقاء كانت تدعيما لفكرة Laissez-Faire التي كانت بدورها اساس الفكرة التحررية الاوروبية في القرن التاسع عشر وهي الفكرة التي انتقلت الى امريكا بعد ان تقوت وتعززت بنظرية داروين ونظرية سبنسر في الداروينية الاجتماعية واراء هكسلي وغيره . وقد لقيت هذه الافكار والاراء والنظريات ، ولا سيما نظريات سبنسر عن التقدم ومعناه ارضا خصبة في الولايات المتحدة وكانت سلاحا قويا استعمله المحافظون ضد دعاة الديمقراطية والمساواة . أقول ان هذه لقيت ارضا خصبة لان معظم ما جرى في الولايات المتحدة من عمران وتنمية وتحضير كان بمجهود فردي لم تتداخل فيه الحكومة ، ولذلك مال المفكرون هناك الى الاخذ بفكرة Laissez-Faire حتى قبل ان تتبلور هذه الفكرة في شكلها الفلسفي ، ولعل النظام الاتحادي القائم في الولايات المتحدة اعتراف ضمني بهذه الفكرة ولكن على نطاق اوسع . بل ان الصراع الفكري القائم الان في الولايات المتحدة بين الاحرار والمحافظين هو في الاصل صراع بين دعاة الديمقراطية والمساواة على أساس الدستور الامريكي وبين المحافظين الذين يريدون ان يتركوا المجال حرا في المنافسة الفردية على اساس بقاء الاصلح وان يحدوا من سلطة الدولة وتداخلها سواء كانت هذه السلطة سلطة الدولة الاتحادية او سلطة الدولة المحلية.

وقد قرات في المدة الاخيرة كتابين امريكيين عن هذا الموضوع : احدهما لمؤلفه سدني فاين عن Laissez-Faire ودولة الصلاح العام Welfare State وعن الصدام الفكري في الولايات المتحدة في المدة من ١٨٦٥ الى ١٩٠١ ،

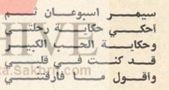
ليلة الرحيل

☆ ☆ ☆

أنا يا حبيب القلب ... في طريقي للرحيل
لا تبعث الاهات حرى ... ان بعدي لن يطول
قلبي سأتركه لديك على ... الهوى يبدي الدليل
قد يسألوني عنه اين ... تركته ماذا اقول
دمعي جواب سؤالهم ... والشوق ليس له مثيل

وغدا سأرحل لست ... أدري كيف احتمل الغياب
وأنا اذا لم يلقني ... يوما اذوب من العذاب
واذا تأخر لحظة عن موعدي ثار العتاب
كالطير اذ ما غاب عنه اليفه فقد الصواب
وتذوب بسماتي ويسألني فلا يلقى الجواب

وغدا يودعني حبيبي ... قائلا ومع السلامه
فأكفكف الدمع الهتون ... فلا يرى غير ابتسامه
وأخاف لو اني بكيت ... بلوعة اذكى ضرامه
ويظل في لهف علي ... اذا بدا دمعي امامه
فأصون آهاتي ... وطي جوانحي اخفي غرامه

سيمر اسبوعان ثم ... اعود لهفى للقاء
أحكي حكاية رحلتي ... للشرق في عرض الفضاء
وحكاية الحب الكبير ... وما بقلبي من وفاء
قد كنت في قلبي ... وفي عيني وفي سمعي نداء
وأقول ما فارقتني ... ابدا صباحي والمساء

ستعيش اسبوعين ... من غيري على حر اللهب
في وحدة لهفي الي ... مع الحنين المرتقب
وتتوق للاخبار أرويها ... بشوق ملتهب
صن دمعك ، الغالي علي ، ... فلا سبيل الى الغضب
ساعود بالقلب الذي ... اضنته اشواق المحب

مصر الجديدة

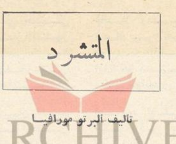
روحية القليني

والثاني لمؤلفه هنري الونزو ماير بعنوان « هل الناس سواء ؟ » عن معنى الديمقراطية الامريكية . وفي كل من هذين الكتابين بحث مطول عن الصراع بين المفكرين حول معنى الديمقراطية والمساواة وحول نظرية النشوء والارتقاء ونظرية سبنسر في معنى التقدم من جهة اخرى ، وحول فكرة Laissez - Faire التي ذكرناها والتي اسميها (الاستبهال) وترك الناس وشأنهم بدون تداخل كبير من الدولة بقصد الاصلاح الاجتماعي وحول حقوق الانسان وغيرها من الاصلاحات الديمقراطية. وهو موضوع واسع متشعب اتركه لفرصة اخرى . واخشى انني بهذا الاستطراد قد خرجت عن جادة البحث ، ولكن خروجي هذا وابتعادي عن اتمام البحث في الفلسفتين الظاهرية والوصفية ، كما وعدت في اول المقال ، دليل على ان الباحث في الفكر الغربي لا بد له من الانجرار الى هذه الاستطرادات . لان هذا الفكر عبارة عن شبكة معقدةوسلسلة محكمة الحلقات.

لندن

حسن الكرمي





المتشرد

تاليف ألبرتو مورافيـا

ترجمها عن الايطالية : سمير الغندور

اصبت بالنحس منذ ولادتي بسبب وجهي الذي اختفت منه ذقني ومع أنها ليست في أهمية العين او الانف الا ان عدم وجودها كان يوحي للناس بأنني مخبول ولا ادري لماذا !

استمر يلاحقني النحس حتى الثالثة عشر من عمري وزاد بموت والدي اذ صرت يتيما . لجات الى خالتي بالريف وهناك عشت في حظيرة الحيوانات وتساويت بهم ولم ينقذني من حالتي الا التشرد عندما دمرت الحرب بيت خالتي وتكومت ليلة باكملها تحت الانقاض وعظمت الاحداث من شان تشردي فلقد عاصرت الحرب والالمان والحلفاء والخراب والجوع ثم انتهاء الحرب .... لو كانت الدنيا على شكل سلالم وهناك من يصعدها ومن ينزلها فانا ليومي هذا مستمر في النزول ...

تصادقت منذ عام مع بواب في أحد شوارع روما ودخلت جيبي بعض الليرات جزاء ما قمت به من خدمات لاصحاب الحانات وشعرت حينئذ اني ساصعد هذه السلالم ولاول مرة في حياتي ..

لن تصدقوني .. من الافضل تكملة حكايتي حتى نقتنع سويا بالسبب الحقيقي فيٰنحسي . ازدحم هذا الشارع بدكاكين عديدة للبقالة والعطارة والجزارة وخلافها من صالات المطاعم وحانات الخمور وكان يتردد على هذه الاماكن كثير من الزبائن الذين يحتاجون لمن يحمل حاجياتهم ومشترياتهم الى منازلهم كذلك يبحث أصحاب الحانات عمن ينقل بضائعهم من مكان لاخر ويستبدل لهم صناديق زجاجات المشروبات الفارغة بغيرها المملوءة ... شملني عطف الجميع وأحسست طعم الشفقة فتارة أفرغ صناديق هذا التاجر واخرى أرضي الزبائن واحمل ما اشتروه الى منازلهم كما استطعت ادخار مبلغ لا باس به حصلت عليه لقاء هذه الخدمات . كنت أقوم من حين لاخر ببعض الزيارات لاصحاب الحانات والمطاعم والمطابخ فأنعم بطبق ساخن من الحساء او الاسباجيتي كما أهداني احدهم « جاكت » ممزق المرفقين ارتديته فوق قميصي الاصفر وبنطلوني الممزق عند ركبتيه واعطاني اخر حذاء متهالكا زال نعله . ومضى على عيشتي هذه ما يقرب من الشهر وفرحت لان النحس كان قد فكر أخيرا في الابتعاد عني . قد يمر الناس في هذا الشارع سيرا على أقدامهم او في سيارة ويبدو لهم كاي شارع اخر في المدينة دون ان يعيشوا فيه مثلي أنا . كنت أبدا يومي قبل ان تدب الحركة فيه وانسحب للنوم في بدروم احد المنازل بالطبع بعد ان تغلق اخر حانة ... فهذا الشارع هو عالمي الذي اقضي به حياتي وقد تصادقت مع كل كلابه وقططه اما عن جيراني فهم مجموعة تكن لي الحب والشفقة واخرى لا تحمل لي لا حب ولا كراهية اما الثالثة فكانت حقا تبغضني وتسخر مني . كان التجار واصحاب الدكاكين والحانات يحبونني لاني في متناول يدهم عند الحاجة البي كل طلباتهم ، وكانت بائعات الخضر والفاكهة واصحاب دكاكين الخردوات والروائح والصيدلي لا يبدون لي حبا او كرها لان كلا منا ليس في حاجة الى الاخر اما فرقة الصبيان الذين اتخذوا من احدى الحانات ملتقى لهم فكانوا يسخرون مني .. وهم صبية كلهم رياضيون يقضون وقتهم في اقامة مباريات كرة القدم او سباق الدراجات ويعلم الله ان كانت الرياضة تزيد من قوة الانسان لينتصر الاقوياء وليفتري على من هم اضعف منه أم العكس ! وكنت احد الضعفاء فكلما وقعت عيونهم علي اشبعوني استهزاء واسمعوني اغنياتهم الساخرة وينادون على بالمتشرد . فذات يوم دخلت الحانة وأجبروني على الشرب حتى الثمالة وخانني لساني بعد غفوتي وقص عليهم تاريخ حياتي وسبب نحسي . كانوا يسخرون مني قائلين : « من أجل منفعتك اطلق لحيتك ولن يدري أحد بعدم وجود ذقنك » . يا لها من نصيحة قاسية لان لحيتي لا أعلم لاي سبب لم تنبت بعد كل ما هناك وبرة طويلة ملتوية تشبه الشعرة . وتحملت مضايقات هؤلاء الشياطين فقد صرت ميسور الحال ونجحت في الحصول على تكاليف معيشتي وشعرت بحلاوة الستر والشبع والنوم والغطاء وبعض الليرات المدخرة ..

ولشدة دهشتي ، كثيرا ما حدثت نفسي متمتما : « امسك الخشب ... سترى ... لن تستمر على هذه الحالة ... امسك الخشب » .

وفي أحد ايام الصيف دخلت كعادتي احدى الحانات لابدل الصناديق وشاهدت الفرقة وقد اصطف افرادها على شكل حلقة بداخل الحانة وجمعت كل ما تبقى لي من شجاعة واتجهت نحو صاحب الحانة غير مكترث بالاخرين فناداني احدهم : « متشرد .. تعال .. لترى من معنا » . وتحاشيته لكنه اقترب مني وامسك بذراعي ، ودفعني بقوة داخل الحانة بين مقاعد وموائد قديمة واكوام من الصناديق والزجاج وكانت المفاجأة...مخلوق ادمي على الارض تنتابه حالة هستيرية يبكي ويضرب خديه ويشد شعره ويخبط رأسه يرتدي بنطلونا مهلهلا وفانله شتوية تصلح للصيف لكثرة ما بها من ثقوب وتبين لي بعد ذلك انه يقوم بكل هذه الحركات بيد واحدة اذ ان الاخرى كانت مبتورة ورفع وجهه الذي اسود من كثافة لحيته ، ولاحظت انه بعين واحدة . وكانت لامعة يقظة يغمرها الدهاء..

أيقنت على الفور لماذا استدعاني افراد الفرقة لعلهم قد وجدوا من يفوقني نحسا انه ليس يتيما فحسب ، بل وبذراع واحدة ومخبول واعور وفوق ذلك كله كسيح .وأيقنت انه منافسي الجديد في التشرد فسوف يعثرون له عن مكان للنوم وسيقوم بقضاء بعض الخدمات .. وقال لي احد الصبية : « اسمع يا متشرد قد تنقصك الذقن وقليل من العقل أما هو فتنقصه يده وعينه وربما عقله باكمله .. بل وكسيح ايضا .. لقد فاقك بمراحل » . وهممت بالانصراف وجذبني احدهم وسالني ان اصافحه واتعرف عليه لاننا اعظم متشردين في الشارع وتصافحنا ثم بدأ من جديد في البكاء والاتيان بالحركات العصبية صائحا : « دعوني أموت .. دعوني لالقي بنفسي في نهر التيبر » . وارغمت على سماع هذا المشهد الدرامي المفتعل وضقت ذرعا بحركاته فأجبته : « لن تلقي بنفسك في التيبر فكل منا يفهم الاخر جيدا » . ونظر الي بعينه الوحيدة قائلا : « لن القي بنفسي ! سترى الان .. في الحال » ووقف واتجه ناحية الباب ، فنهر التيبر لا يبعد عن الشارع كثيرا وأوقفه الصبية وشجعوه ببعض الكلمات والليرات . تركني الصبية لانصرف وتوجهت لصاحب الحانة وطلبت الزجاجات الفارغة وأجابني : « صبرا ... سيحملها من هو أتعس منك » .

القاهرة — سمير الغندور



عبد الغني العطري

البزم.. في ذكريات وخطرات

بقلم عبد الغني العطري

* * *

في الثلث الاخير من العام ١٩٥٥ فجعت دمشق بواحد من اربعة شعراء فحول ، يحملون جميعا – او على الاصح يتنازعون – لقب « شاعر الشام » . اما الشاعر الذي نحن بصدد الحديث عنه ، من هؤلاء الاربعة ، فهو المرحوم محمـــد البـــزم .

عندما يذكر البزم تتسابق الى المخيلة ، صور شتى لذلك الشاعر الفحل العملاق ، استاذ اللغة العربيـــة ، الذي كان يقسو على تلاميذه الى حد الافراط ، ويحاسبهم حسابا عسيرا على كل تقصير او هفوة في اللغة . وربما انبهم وانزل بهم صارم العقاب ، من اجل فتحة او ضمة او كسرة . وقلما كان البزم يخاطب تلاميذه بغير اللغة الفصيحة ، او يسمح لهم بمخاطبته بغيرها ، حتى ان ذلك كان موضع تندر بعضهم ، وسخرية الاخرين ، ولا سيما ان شاعرنا كان يتعمد اختيار الالفاظ الغريبة ، ليشرحها لهم ، ويدخلها في قاموس افهامهم . ومهما كان الامر ، فان الجيل الذي تتلمذ على يدي المرحوم البزم ، طـوال العشرين عاما ، التي قام خلالها بتدريس اللغة ، كـان اقوى جيل درس اللغة وقواعدها واصولها واسرارها .

كان البزم شاعرا فذا ، ولكنه كان يعنى باللغة وحوشي الفاظها ، عناية كبيرة ، تصرفه في كثير من الاحيان ، عن ابتكار المعاني – كما يقول خير الدين الزركلي في اعلامه – من اجل ذلك نرى قصائده تحفل بغرائب الالفاظ ، ومنسي التعابير والكلمات . انه شاعر الجزالة والفحولـة والقوة ، حتى لنجد فيه نفحة جاهلية تجعله يقف احيانا الى جانب امرىء القيس والمنخل اليشكري واضرابهما من شعراء الجاهلية . وكذلك نجد في بعض شعره اثر المتنبي ومتانـة قوافيـه .

والبزم يلجأ الى هذا اللون من الشعر ، ليبرهن على تضلعه من اللغة ، وتمكنه من المعاني البدوية ، التي ماتت مع الجاهليين ، ودفنت منذ قرون عديدات . فاذا ما عاب شعره ناقد او شاعر ، رد البزم عليه قائلا :

يعيبـــون منـــي لهجـــة يعربية   ونهجة صدق اعوزت من يرودهـا
ولـو عن هدى قالوا لاسمع قولهم   ولكنها الاحشـاء ثـارت حقودهـا
ولي من يراعي صاحب غير خاذل   اذا دهمتنـي للخطوب وفودهـا

او اجاب بقوله :

يريدون منـي غير طبعي تخنثـا   وما انا والشعر البليد المخنـث
يريدون شعرا أعجميا مفككـا   يعيث بذات الضاد جهرا ويعبـث
وراعهـم فحـل الكلام كانهـم   وقـد نفـروا من سمعه قد تأنثوا

والشاعر كثير الاعتزاز بلغة الضاد ، عظيم الحب لها ، والتعلق بها ، اشاد بها وصلى في محرابها في كثير مـن قصائده . لنستمع اليه على سبيل المثال يقول :

لنـا لغـة عن سالف المجد تعرب   فلله ما ابقـى معـد ويعـرب
كستهـا بنـان العبقرية حليـة   تميـد لهـا غلب العقول وتطـرب
وقد بلغـت قدما بها العرب العلى   وفاقـت على كـل الاقاليم يثـرب
وكانـت لسان الحميريين أدهـرا   وباهـت بها في غابر الدهر مارب

والبزم شديد التباهي بشعره ، كثير الهجوم علـى خصومه ، هاجمهم نثرا ، وهجاهم شعرا ، وطالما ندد بهم في مجالسه وندواته ، والصق بهم صفات التخنـث والضعف والشعوبية والسرقة ، حتى خسر معظـم صداقاته مع الشعراء الذين عاصروه . لنستمع اليـه يقـول مثـلا :

زعمـــوا للاخـــرق المـا   فـون شيطانـا وشعـــرا
وهـــو لـو عمـــر الد   هـــر لـــن يحكـم شطـــرا
يا عبيـــد الشعـــر قـــد   ابرمتـــم الليـــل دبيبـــا
واغرتـــــــم فتركتـــــم   شاعـــر القـــوم سليبـــا

ولنستمع اليه يسخر من شاعر لم نعرفه :

خل القريض لقوم ان دعوه سعى   مزينـا بكريـم الـدر مكنونـا
فليس يستطيع حر الشعر غير فتى   ينحو القريض بسيف الطبع مسنونا
ما زلت تهذي بـاوزان ترتلهـا   حتىحسبتك – وايمالشعر – مجنونا
حاولته – وظلام الليل معتكـر –   فبـت تنتف في الظلمـاء عثنونـا
قرأت شعرك في « آب » فخيل لي   اني اقلـب في احشاء « كانونا »

ومثل هذا الهجاء اللاذع للشعراء كثير في ديـوان البزم ، ومثل دله بشعره واعتزازه بقوته وفحولتـــه كثيـــر ايضـا .

ولعل اطرف ما في شعر البزم ، انه يخلو خلوا تامـا من الغزل ، ويكاد يخلو من ذكر المراة ايضا . انه لم يتغزل ولم يعرف الغزل ، ولم يذكر المراة الا في مناسبات قليلة ،

اهمها وصفه لروسية في مرقص ، وفي ذكره للحجاب ، وفي رائعته « ربة الخدر » التي يدافع بها عن المراة ، وعن حقها بالعلم والحرية والحياة . ان البزم – فيما يبدو لنا – لم يحب ولم يعرف الحب ، ولا عرف لوعته وعذابه ، ولم يذق حلاوته وشهده ، ولو احب وعشق بالمعنى الصحيح ، لترك ذلك اثرا بارزا في شعره ، كما هو شأن جميع الشعراء ، المتقدمين منهم والمتأخرين . ولعل البزم كان قوي الارادة ، مسيطرا على عواطفه ، يمنعها من ان تتعلق بحب امراة ، ودليلنا على ذلك قوله :

ان الهوى هوان ... وذله الهوان
فسلمه عدوان ... وسخطه رضوان
وسره عفوان ... يقظانه سهوان
حامله نشوان ... يزري به الاخوان
فتارة اسوان ... ومثلها شهوان

وهكذا يمضي الشاعر الى نهاية ارجوزته ، منددا بالحب والهوى ساخرا ممن يحبون ويعشقون .

قلت ان البزم شاعر فحل ، فيه نفحة جاهلية ، ولكن هذه النفحة تبلغ حد التقليد والتشبه واقتفاء اثر الجاهليين . وكيف لا تكون كذلك ، ونحن نجد في كثير من قصائده الفاظا عفى عليها الزمن ، وكلمات طوتها الايام ، وباتت ذكريات في بطون المعاجم والكتب الصفر؟. لنستمع اليه على سبيل المثال ، وما اكره الامثلة لو اردنا :

نازلتي تفرجي ... ليس بعشك ادرجي
وفي الجموع اندرجي ... وارتبئي واستدرجي
في هرم مدرج ... وان قدرت برجي
ورتبي وشمرجي ... وزهزقي وخرجي
ودرنجي ودحرجي ... وصعدي في الدرج
وان غضبت انشرجي ... أو ارتضيت عرجي
ما درهمي ببهرجي ... ولا أنا بكرج

ولا ريب ان من يلقي نظرة فاحصة على هذه القصيدة – وامثالها كثير في ديوان البزم – يدرك حق الادراك ان الشاعر قصد ان يختبر بها مقدرته اللغوية ، وسعة اطلاعه على اسرارها وخوافيها ومنسي الفاظها ، قبل ان يحاول قول الشعر ، او يدلي بفكرة ، او يبتكر معنى . انه يريد ان يبرهن على سعة اطلاعه وعلو كعبه في اللغة بامثال هذه القصائد . انه واثق من شاعريته . لقد اعطى البزم الدليل القاطع على فحولة شعره ومتانة قوافيه ، وطول نفسه في عشرات القصائد ، فلا بأس في ان يثبت للملأ سعة اطلاعه على اسرار اللغة والفاظها التي يجهلها كثير من ادباء العصر المرموقين .

☆ ☆ ☆

من الظلم الفادح للشاعر البزم ان نتحدث عن شاعريته وادبه ، دون ان نشير الى غرامه بوطنه ، وتغزله ببلاده . لقد سلبته دمشق كل قلبه ، واسرته غوطتها ، وطار بفؤاده برداها ... انه شاعر وطني متيم يحب بلاده وآثارها وتاريخها . ولعل اروع ما قال ونظم لا يتعدى باب وطنياته . لقد صدر ديوانه بقصيدة تزيد على مئة وستين بيتا عن « دمشق » بدأها بالحديث عن « ماضيها »، وانثنى الى وصف «جمالها»، واعقبه بالكلام على «اخلاقها»، ثم عن بني امية فيها ، وعن جيوشها ، وشبابها ، وعن بردى وفروعه ، وعن غوطتها الفيحاء ، وختمها بعودة الى دمشق . يقول البزم في مطلع هذه القصيدة الكبرى :

رفعت على حرم الخلود بنودا ... ومضت تحلق في الاباء صعودا
بنت العصور الحاليات نحورها ... بالزهر تسطع ما عرفن خمودا
القت اليها الارض مقود اهلها ... ورمت الى ابطالها الاقليدا
وعقالها الفلك المدار فسيرت ... خطواته فيما تريد بريدا
ريحانة الدنيا وظل نعيمها ... من قبل مولد يعرب وثمودا

ولهذه القصيدة الخالدة قصة طريفة ، ما احب ان تظل طي النسيان :

لقد نظم المرحوم البزم رائعته هذه ، وارادها ان تتصدر ديوانه . وكنت في اوائل العام ١٩٤١ ازوره في داره بحي السبكي ، حين حدثني عنها ، واسر لي بموضوعها ومبلغ اعتزازه بها ، ثم اعطاني نسخة عنها مع طائفة مختارة من جديد شعره ... وما هي الا شهور حتى أصدرت مجلة «الصباح» الادبية ... وهنا ذكرت الكنز الثمين الذي يعتز به البزم ، فدفعت بقصيدة « دمشق »الرائعة الى النشر في عدد «الصباح» الثاني ، بعد ان زينتها بصورته ، وقدمت لها بسطور اثنيت فيها على الشاعر والقصيدة . وحين اطلع البزم عليها ثار ثائره ، وحمل عصاه التي يتوكأ عليها وهو في شيخوخته ، وذهب يبحث عني في منزلي – وكان اليوم يوم جمعة – فلما قرع الباب ، وعلمت بمقدمه ، هرعت اليه لارحب به ، ولكنه كان متجهم الوجه ، مقطب الجبين ، فلما دعوته الى الدخول وتناول القهوة، رفض وطلب ان اعطيه ما لدي من شعره غير المنشور، لانه لا يرغب بنشره ، قبل ان يعيد النظر فيه ، ويشرح بعض الفاظه . وكان يوجه الي اللوم بشيء من الجفاء ، لاني نشرت رائعته عن دمشق ، دون ان استأذنه ، ودون شرح لها ... ولانه كان يؤثر ان يحتفظ بها لتنشر في صدر ديوانه بكرا لم تر النور ...

وكانت هذه الحادثة اخر العهد بيني وبين المرحوم البزم.

☆ ☆ ☆

وبعد ... فقد كان البزم شاعرا فريدا بين الشعراء تميز – كما قلت – بفحولة شعره ، ونفحة جاهلية في بعض قصائده وبرزت في ديوانه حماسته لوطنه وعروبته. لقد ظهر البزم عملاقا في اسلوبه ولغته حين قال الشعر ، وتطاول الاقزام ، وضعفت اللغة ، وشاعت الركالة والميوعة بين الادعياء ، وصح في شاعرنا ما قاله في وصف نفسه وشعره :

انا الفحل في صوغ القريض مجرب ... وان ضلالا ان يران المجرب

المركبة

تطاولت ليلتي واشتد غيهبها   وكفن الدهر نجماتي وواراها
وفي يدي جرعة حمراء قانية   من ناقع السم تدعوني لنعماها
وثم فوق الطريق الرحب مركبة   سوداء يعدو بها عدوا جواداها
حوزيها هيكل من رمة بليت   وسوطه شعلة بالحقد أذكاها
ووجهه بارد كالثلج قد جمدت   فيه المعاني فما تبدو خفاياها
ومحجراه بلا عينين خلتهما   كهفين قد قفرا للنور افواها
أعمى يطير بها عبر الزمان الى   لا شيء او غاية قد شط مرماها
فصحت والكأس في كفي تراودني   أن احتسيها وشيء في يأباها
يأيها السيد الميمون هاجسدي   وارفق بروحي فان الدهر اشقاها
أذلها الدَيْن بعد الفقر واحتشدت   لها الخطوب فما تنفك تفشاها
وزادها وحشة ان لا أليف لها   ممن تحب فترعاه ويرعاها
ولا صديق يواسيها ولا ولد   على المشيب فتلقى فيه سلواها
فمد من رحمة كفيه محتضنا   روحي وقد كربت تجتاز دنياها
وحومت بومة فوقي على عجل   شنعاء يخفق من شوق جناحاها
لكن كفيَ بعد العزم قد رجفت   والكأس قرب فمي او كاد يلقاها
اذا هممت بها لاحت على بعد   فتون دنيا على الحرمان أهواها
فاستضحك السائق الوحشي من جزعي   وقال يخدع عن نفس تشهاها
يايها المتعب المكدود مركبتي   تدعوك فاركب ولا تجزع لمرآها
وخل ارضك لا يغررك بارقها   فقد أسوت كثيرا من ضحاياها
وهذه الكأس في يمناك شافية   وليس ينجيك من بلواك الاها
فقلت يا طلعة الشؤم التي تعبت   فيها الظنون وضلت في خباياها
اليك عني وان ناديت مستمعا   وخل روحي ولا تحفل ببلواها
ساطرح الكأس ارضا غير مكترث   بما تجيء به الايام عقباها

واسفر الصبح عن غراء ضاحكة   جلى العماية عن قلبي محياها
وبلبل قد رأى عبر الشتاء رؤى   فراح يشدو من الالحان أشجاها
وطيف مركبة سوداء قد عبرت   في الليل اشتاقها حينا وأخشاها

حلب   **عمر ابو قوس**

واني افعى الشعر احمي ذماره   اذا دبت القراء للشعر عقرب

وبالرغم من هذا كله فقد ظلمه عصره ومواطنوه ،والمجمع العربي ، والشاعران الاديبان اللذان اشرفا على طبع ديوانه ... اما هذا الظلم فمرده الى ان المجمع العلمي لم يقم للبزم حفلة تأبين ، كما اقام للكثير من اعضائه البارزين بعد وفاتهم ، ولان ما كتب عن البزم نزر يسير ، بل هو اقل من النزر اليسير ... وكذلك لم يشرح ديوانه الشرح الكافي ، ولم يشر فيه الى مناسبات القصائد وتواريخها ، ولم يقدم شارحا الديوان المرحوم البزم الى القراء ، باكثر من سطور قلائل ، قبساها عن كتاب الاعلام للاستاذ خير الدين الزركلي !.. كما نشرا في صدر الديوان رسالة بخطه الى الاستاذ احمد عبيد ، لم يكن من المناسب قط ان تنشر !..

ان البزم شاعر كبير فحل ، وان اعوزه ابتكار المعاني احيانا ، او ظهر في شعره طابع التقليد احيانا اخرى ... ولا بد ان دارسي الادب ومؤرخيه سينصفونه في المستقبل القريب او البعيد ، وسيؤرخون حياته ويحللون شعره ، ويحلونه المنزلة التي يستحقها بين الشعراء البارزين في النصف الاول من القرن العشرين ...

دمشق   **عبد الغني العطري**

المحبة اعظم ما في الوجود

بقلم حبيب الخوري

* * *

لا شيء في هذه الدنيا اجمل من الحياة ، ولا شيء في هذه الدنيا اصعب من الحياة ذلك لان الحياة بما يلابسها من انسجام واتزان هي فن من اجمل الفنون واعودها على الانسان بالجدوى . غير خفي ان الفلسفة الادبية قدمت لنا من روائع الاخلاقيات ما اصطلح على تسميته « الفضائل » وهذه الفضائل تعد بالعشرات ، على ان رجال الفلسفة الاعلام كادت تحصرها في سبع ، اربع منها اساسية ، هي الاعتدال والشجاعة والعدل والفطنة ، وثلاث دينية هي الايمان والرجاء والمحبة . وهذه الثلاث اعلى قمة واسمى مقاما من الاساسية الاربع ، ليس من الناحية الدينية فحسب ، بل من الناحية الدنيوية ايضا . وهذا جلي كل الجلاء في الاسفار الدينية وفي الكتب والرسائل الفلسفية من هندية ويونانية وفارسية الخ ، وفي تلك الاسطورة الهندية الذائعة الصيت عن الحمائم الثلاث التي هي ليست سوى رمز جميل للايمان والرجاء والمحبة . وغني عن الذكر اننا عالجنا هذه الفضائل منذ عهد قريب في الصحف والمجلات وتناولناها في شيء من التحليل خلصنا منه الى القول : ان الاعتدال هو الحارس الامين للفضائل جمعاء ، والحافظ القوي لتوازن كل منها ، وان الشجاعة هي دافعها القدير والحافز المثير لكل منها ، وان المحبة ـ وهذاهو الامر الجوهري ـ تاج الفضائل دون نزاع.

المحبة اعظم ما في الوجود

ان ثلاثي الفضائل الدينية هذا هو من اركان الدين الاساسية ، ومن اركان الدنيا ايضا اذ ليس في مقدور المرء ان يحيا ساعة واحدة في امور دنياه من دونه . ثم انه وان ظهرت اركان هذا الثلاثي متكاملة في الفضل ، لا يسعنا الا ان نجد مجالا للمفاضلة بين فضائله . ويؤيد قولنا هذا قول قديم مشهور : اما الان فيثبت الايمان والرجاء والمحبة ، هذه الثلاثة واعظمهن المحبة . وما ذلك الا لان اختي المحبة تشتقان وجودهما وقوتهما من تلك الاخت االتميزة في عظمتها ، وهما مدينتان لها في فضل كل منهما . هذا من جهة هذه الدار التي نحن نازلوها ، واما من جهة الدار الاخرى فلسوف يحل «العيان» محل الايمان ، و «التحقق» محل الرجاء ، فلا يبقى لهما من محل في دار الخلد اطلاقا ، لان هذه الدار تتدفق المحبة فيها كتدفق شلالات نياغارا احدى العجائب الحديثة للطبيعة . وهذه المحبة العارمة يتمتع بها اصفياء الله ومختاروه الابرار ، في حضرة تلك «المحبة الكلية الشاملة» . اضف الى ذلك « ان الله محبة ومن يثبت في المحبة يثبت في الله والله فيه » . وما دامت هذه المحبة ، هي كما راينا ، اعظم ما في الوجود ، يقرها على ذلك الدين والفلسفة ، كان لزاما علينا ان نتناولها في شيء من التحليل العميق الموزون ، حبا بالوقوف على سر تفوقها في العظمة على سائر الفضائل ، متوخين الايجاز الحامل بين ثناياه جوامع الكلم .

ان ادراك الجمال ـ وقد قال فيه قدماء الفلاسفة ومحدثوهم ـ « اننا لم نكن لنقبل الخير لو لم ياتنا عن **طريق الجمال** » ـ هو اساس المحبة ، والمحبة هي مفتاح المعرفة ، والمعرفة هي تعانق العقل مع الشيء الذي يتعرف اليه بحيث يأخذ شكله ويتطابق معه ، ولا تقارب بينهما ولا تعانق من دون المحبة . اذ الجمال والمحبة والمعرفة في النهاية ، كما في البداية شيء واحد ، والتربية الصحيحة الكاملة هي التي تؤدي الى ادراك وحدة الجمال والمحبة والمعرفة . ان هذه المعرفة الكاملة من دنيا وعليا هي التي نتبين بها وحدة القلب المحب والعقل النير وحتمية الانسجام بينهما . ومن هذا الانسجام يأتينا الاتزان الخلقي منقادا . والاتزان هو القمة المشرقة في اية شخصية كاملة . وعن طريق هذه المعرفة يسعنا ان نمتثل لنظام الكون والحياة. وعلى ذكر الامتثال هذا يسعنا ان نشير الى ان من يعاند هذا النظام يستعبد نفسه ، ومن يطاوعه يتحرر وينتقل من صف المسيرين الى صف المخيرين . وبسبب كل ما ذكر عن فضل المحبة ورد القول المشهور في زمن كان الحرص فيه على حفظ النواميس والقوانين والعمل بها جد خطير لاحراز سعادة الدنيا والفوز بنعيم الاخرة « المحبة هي تكميل الناموس » .ذلك لان المحبة الحقيقية تغني الانسان عن الجهاد المرير في تنفيذ عالم من الحدود والاحكام ، ولا سيما « الوصايا الادبية العشر » وتطبيق المئة وصية ووصية المشتقة من تلكم العشر ، وهذا فضل عظيم يؤتاه المرء في دار الجهاد هذه .

حل المحبة الى عناصرها

ان المحبة شيء مركب كالنور ، وكما ان العالم في مقدوره ان يحل النور الى الوانه السبعة ـ وقد اضيف اليها اثنان ـ هكذا حل علماء الدين والفلسفة المحبة الى عناصرها السبعة ـ وقد اضيف اليها اثنان ـ وهي الصبر واللطف والنزاهة عن الحسد والتواضع وانكار الذات والنزاهة عن الحدة او الحلم والاركان . وما احرانا في هذا الموقف ان نقصر بحثنا على ثلاثة منها : **١ ـ اللطف ٢ ـ النزاهة عن الحدة او الحلم ٣ ـ الاركان او الثقة**

بالغيـــر .

١ ــ اللطف : ان للطف معنى ، ومعناه المحبة العملية او النشيطة . قال احدهم ــ ان اعجب ما اراه في الارض قصورنا عن ان يكون رفقنا اوفر منه في الواقع ، فان العالم اشد حاجة الى الرفق منه الى غيره ، وهو من اسهل الامور على الانسان. وسأل بعضهم العالم « بيكون » الذي قلب الفلسفة اليونانية عن القاعدة الخاصة التي يتبعها في حياته اليومية ، فاجاب ان قاعدة حياتي هي ان اكون لطيفا ، لان اللطف لا يخسرني شيئا بل يربحني كل شيء . على ان هذه الفضيلة قد اعتورها شيء من الانحراف ، فامست في عرف طائفة كبيرة من الناس مجاملة فارغة تحمل في برديها شيئا من الرياء والمخادعة والمنفعة الشخصية . ان الفرق لعظيم بين من يحاول ان يرضي الناس وبين من يقدم لهم الرضى فعلا . وهذه ظاهرة نلحظها في المدن اكثر منها في القرى . ولقد انتاب اللطف ايضا شيء من اساءة الفهم لدى طائفة من ادعياء الفلسفة الادبية او علم الاخلاق، فارتأوا انه مظنة للضعف واستشفوا منه العزوف عن الاقدام. على رسلكم ايها الادعياء ! ان اللطف الحقيقي هو عنوان القوة وموئل الشجاعة ، ولنا على ذلك امثلة عديدة ١ ــ خصومة الشمس والريح في ايهما اقوى ومحاولتهما ان تجعلا الرجل المار كما تقول الاسطورة ــ يخلع عباءته ، فكان النصر للشمس الهادئة على الريح الهادرة . ٢ ــ ان زيادا بن ابيه حاكم العراقين والحجاج بن يوسف لهما فضل غير قليل في تثبيت الحكم لبني امية ، على ان التاريخ يعطي زيادا الافضلية للطفه ويعطي الحجاج خمسين بالمئة من الحسنات وخمسين بالمئة من السيئات لانه ببطشه مهد السبيل لاذلال الامة العربية. ٣ ــ حادثة الاميرة الفرنسية وهي سائرة في موكبها الرائع الى الاكليل والتقاؤها بموكب لا يعدو بضعة نفر يحملون طفلة الى مثواها الاخير ، واخذها ضمة من ازهار عرسها ووضعها على نعش الطفلة بيدها . ولما جاءت الثورة الفرنسية هربت الاميرة وزوجها وطفلاهما ولما صاروا على مقربة من الحدود التي كانت يرابط فيها رجال الثورة اقبل عليهم رجل منهم وقبض على اعنة خيل المركبة وسار بها في طريق جانبية وامرهم الحدود ، وكان هذا الرجل والد الطفلة التي وضعت الاميرة الزهور على نعشها . نرى من كل ذلك ارباب اللطف الحقيقي لا يجارون في الكياسة والرقة . قال كارليل في روبرت برنس « ليس في اوروبا الطف واقوى من هذا الشاعر الفلاح » . ومثله كان شاعرنا البهاء زهير الذي تميز بالرقة والظرف وقد طبع ديوانه مرارا وترجمه المستشرق بالمر الى الانكليزية نظما في مجلدين وعلق عليه الحواشي والشروح .

٢ ــ النزاهة عن الحدة او الحلم : من اجزاء المحبة ذات الشأن النزاهة عن الحدة ، ولا شيء اعجب من ان تأخذ النزاهة عن الحدة مكانتها في مركب المحبة . فقد اعتدنا ان ننظر الى الحدة كعرض بسيط من اعراض الطبيعة البشرية لا ضرر منه مع ان المزاج الحاد ينقص من كمال ذوي السجايا الكريمة وينزل من مكانتهم ومقامهم الاجتماعي فهو رذيلة الافاضل . ان اجتماع هذه الرذيلة باسمى السجايا الادبية من اغرب المسائل في الفلسفة الادبية او علم الاجتماع . ليس بخاف ان النفوس لا تحلو بنزع الحوامض منها فحسب بل بوضع شيء اخر فيها مثل المحبة، فاذا حلت المحبة فينا حلت اخلاقنا وطهرتها ، فهي المقوم لكل عوج فينا ، وهي الالفة الكيمية المقدسة التي تتحد بها عناصر المحبة . ولا ندحة لنا عن القول اننا لا نقيم وزنا لرجل لا طبع له سداه الميعة ولحمته الفتور ، على شرط ان يحفظ هذا الطبع في قفص ولا يطلقه الا عند خشية الانتقاص من حرمات الفضائل والمبادىء العالية « من راى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه ... الخ » . ان التاريخ حافل بابطال الحلم ، ولا حاجة بنا الى ان نذهب بعيدا فعندنا بحمد الله ابطال كثر نخص بالذكر منهم معاوية والاحنف بن قيس ومعن بن زائدة فقد خاطب عبدالله بن الزبير في كتابه الاول معاوية « الخليفة » متنائيا عن كل كياسة بقوله يا معاوية ومهددا بقوله والا كان بيني وبينك شأن . وخاطبه في كتابه الثاني ــ وكأنه يبايعه بقوله : اطال الله بقاء امير المؤمنين الخ . وقد جيء الى الاحنف بن قيس بابنه مقتولا فلم يقل للقاتل شيئا سوى « اضعفت نفسك بقتلك ابن عمك » . وجاء رجل يمتحن حلم معن فقال فيه قصيدته المعروفة وكان في كل بيت فيها قول قبيح يثير الحفيظة والموجدة الى اقصى حدودها ومع ذلك لم يخرج معن الامير عن كماله الخلقي اطلاقا .

٣ ــ الاركان او الثقة بالغير : ان الاركان نعمة المرتابين، وامتلاكه سر التأثير الشخصي . واذا انعمنا النظر قليلا راينا ان ارباب التأثير فينا هم ارباب الاركان الينا والثقة بنا . ان اهل الريبة هم في انقباض مستمر ، وان اهل الاركان هم في انبساط مستمر والفة حسنة توسعهم شجاعة وتهذيبا . ومن عجب اننا لا نرى في هذا العالم الواسع الا القلة ممن لا يسيئون الظن بسواهم . واذا اردنا التأثير في الغير واصلاحهم وجدنا ان احرازنا لهذه الرغبة على قدر ثقتهم باركاننا اليهم وثقتنا بهم . لان اعتبار الانسان لغيره هو اول وجدان لما فقده من اعتبار ذلك الغير له . ان هذا الاركان هو من اهم مركبات المحبة التي تصنع المعجزات وتمهد السبل للمصلحين ايا كان نوعهم ازاء المستحيلات خرجت زمرة من الفتيان للتنزه على شاطىء نهر ، وفيما هم يسرحون ويمرحون ، سقطت ساعة احدهم في الماء فبحث عنها حتى تعكر الماء وتوحل. فلم يكن من احدهم الا ان جاء بزجاجة وصب منها زيتا فوق البقعة العكرة ، فصفت وراقت وامكن انتشال

دخان الجوع

الى روح أبي في ذكرى انتقاله الثانية من صحراء الدمع والجوع

☆

نشر الحب موسما في غنائه ... كنت يا حب مترعا بشقائه
شاعر يحصد الشقاوة في الارض ... ويقتات من طوى كبريائه
علق الحزن خلف جفنيه قوسا ... لسهام الامال ، ملء فضائه
قلبه ترحل المشاعر فيه ... كارتحال الصباح في أضوائه
كم لينبوعه عروقا وآيات ... دهاقا ، تفيض مرمى جوائه
يا امتداد الهادي سطوعا بابناء ... عطاش ، والنور من ابنائه
يطلع البشر عاصفا قدسيا ... لا تموت الاصداء خلف ندائه
واذا انكر الظلام ضياء ... فضياء يشع بعد انطفائه

صدره الحقل والضلوع غراس ... هي للنار حاليات دمائه
في خوابي الجمال منه عتيق ... في عيون الربيع نشر شتائه
وعلى الصخر زفرة لهواه ... وعلى النهر صرخة لانتشائه
ظامىء تسكب الحروف رؤاه ، ... وقوافيه مسبحات ارتوائه
كللته الافاق في السفر البكر ... بوعد العلياء ، غب انقضائه
فاعتلى حلمه صليب امان ... احرقته الالام في صحرائه
يحضن الرمل من بقاياه كنزا ... رصدته الرياح دون سمائه
هو لليل في عناق وضيء ... هو الصبح في انعتاق سنائه
هو للارض ختمها ، أي سر ... تحتويه الفصول قبل انتهائه
جسدته الالوان متحف زهر ... « انه الحب منتهى شعرائه » !

موسى المعلوف

الساعة . اذا سكب رجال الدين والمصلحون والمربون زيت محبتهم القلبية الحارة اكتشفوا جذوة الخير في أحط الناس واقربهم الى الدمار الخلقي وربحوا نفوسهم .

الخاتمة

ماذا عسانا ان نقول عن المحبة «ومجال القول ذو سعة» فاننا لم نذكر الا النزر اليسير من عناصر المحبة . ولكن العناصر لا تبين حقيقة ما تركب منها ، والمحبة ليس تحديدها من الهنات الهينات . ان النور شيء اكثر من مجموع بسائطه ، والمحبة امر يربو على مجموع عناصرها . والنور يزيد على مجموع تلك البسائط بانه لامع متألق مترقرق ، والمحبة تزيد على مجموع عناصرها بانها شيء ذو حس واختلاج وحياة . والانسان بجمعه كل الالوان الاصلية يمكنه ان ينشىء البياض لكنه لا يستطيع ان ينشىء النور . وبجمعه الفضائل يمكنه ان ينشىء فضيلة ولكنه لا يستطيع بذلك ان ينشىء المحبة . فكيف ننشئها في نفوسنا والحالة هذه ؟. ان المحبة مسبب ولا يمكن امتلاكها الا بسببها . ان طريقها طريق الايصال ، فاذا وضعنا قطعة من الحديد قرب جسم مكهرب تكهربت بعد قليل ، واذا الصقناها بمغنطيس دائم صارت مغنطيسا وقتيا ، وما دامت مجاورة لذلك المغنطيس تظل مغنطيسا . فلنظل على مقربة من تلك «المحبة الكاية الشاملة» نصير مغنطيسا روحيا ونجذب الناس الينا . كما فعل الغزالي الذي هام في حب الله والتعطش الى معرفته والبقاء بالقرب منه وصيرورته مغنطيسا روحيا هاما . ليت شعري لماذا نهوى الحياة ونود ان نعيش الى الغد ؟. أليس من اجل الذين نحبهم ويحبوننا ؟. واذا لم يكن للمرء من محبين ومحبوبين فالحياة لا معنى لها اطلاقا وقد يكون الموت خيرا منها . قال الشاعر :

ومن السعادة ان تحب ... وان يحبك من تحبه
ومن الشقاوة ان تحب ... ولا يحبك من تحبه

اريحا ـ الاردن — حبيب الخوري

التضامن الاسيوي الافريقي وأثره

بقلم محمد جميل بيهم

* * *

كما كان العرب قدوة لسائر الاسيويين الافريقيين في المبادرة الى مكافحة الاستعمار فقد كانوا كذلك اول الامم في التفكير بحاجتهم الى مؤسسة تجمع بينهم ، وتنسق اعمالهم ، وتؤيد كفاحهم ، وتكون في الجملة رمزا لوحدتهم . واعني بها جامعة الدول العربية التي تألفت سنة ١٩٤٥ .

وفي العام نفسه تقرر في مؤتمر يالطا دعوة الدول الحليفة الى اجتماع يعقد في سان فرنسيسكو لتنظيم شؤون العالم بعد الحرب العالمية الثانية ، وذلك على الاسس التي اقترحت في مؤتمر دمبرتن اكس . وقد عقد هذا الاجتماع الدولي في سان فرنسيسكو ابتداء من ٢٥ نيسان ١٩٤٥ ، واشتركت فيه خمسون دولة وقعت على ميثاق جمعية الامم المتحدة ، وكان بينها سوريا ولبنان ، ومصر ، والعراق ، والعربية السعودية .

ومنذ قيام جمعية الامم شعر ممثلو الدول الاسيوية الافريقية بحاجة ملحة للتكتل ولم يكن يعود ذلك الشعور الى اشتراكهم في الالام والامال فحسب ، بل لانهم حملوا على التفكير في التكتل اذ راوا الدول الكبرى تحاول الهيمنة على هذه الجمعية بالتعاون بينها لجعلها اداة صالحة للحفاظ على الاستعمار . وقد اجتمع هؤلاء في اذار ١٩٥٢ ، ووقعوا ميثاق الكتلة الاسيوية الافريقية في نطاق هيئة الامم . ثم تكاثر عدد اعضاء هذه الكتلة تباعا حتى اصبح الان يزيد عن نصف اعضاء جمعية الامم .

وقد اضطلعت هذه الكتلة منذ تأسيسها باعباء تأييد الشعوب في نضالها على احسن وجه ، وكانت تؤدي لهذه الشعوب خدمات اوفى واجل كلما ازداد عددها حتى كان لها الفضل الكبير في تقويض اركان الاستعمار .

وفي الجلسة التي عقدتها جمعية الامم المتحدة في ٢٤ ايلول ١٩٥٨ فوجىء المستعمرون بما لم يكونوا يألفون سماعه من افريقيا . فقد نهض احد وزراء الدول الممثلة بهذه الكتلة ،واعني به وزير خارجية الحبشة وطلب بصراحة ان ترفع الدول المستعمرة ايديها عن هذه القارة ، وان تترك لها حقها الطبيعي بممارسة حريتها واستقلالها . وفوجئوا ايضا حينما انتصب واقفا مندوب غانا وايد بكل جراة زميله الحبشي ، وحمل بشدة على الاستعمار

وقد ثابرت هذه الكتلة على نضالها من اجل تحرير الشعوب ، ونتيجة لهذا النضال قررت جمعية الامم تأليف لجنة لتصفية الاستعمار ، فجاء هذا القرار بمثابة اداة تنفيذ لمبدأ حق كل شعوب العالم في المساواة ، والحرية ، والحكم الذاتي .

على ان الدول الاسيوية ـ الافريقية كانت ، خلال ذلك ، لا تتكل على هذه الكتلة فحسب ، بل كانت تعتمد على نفسها بتكتيل اخر خارج هيئة الامم المتحدة شعورا منها بأن مشاكلها متشابهة ، وان الخطر الاستعماري لا يفتأ يهددها بأساليب جديدة ، وان استقلت . لذلك كان اول عمل قامت به الهند ، في اعقاب احرازها الاستقلال عام ١٩٤٧ ، توجيه الدعوة الى جميع بلاد اسيا لمؤتمر عقد في دلهي ، ووضع قواعد التعاون الاسيوي .

وفي العام الذي تألفت فيه الكتلة الاسيوية ـ الافريقية في هيئة الامم حدث انقلاب في البلاد العربية كان له اثر كبير في التكتيل ضد الاستعمار وفي قيام كتلة ثالثة غير الكتلتين الشرقية والغربية ، واعني به ثورة مصر التي وقعت في ٢٣ تموز ١٩٥٢ .

فمذ انتخب سيادة جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية المصرية في ٢٥ حزيران ١٩٥٦ انصرف همه الى تحرير الشرق علاوة عن اثارته القومية العربية . ومد يده الى الباندت نهرو في الهند والسيد شكري القوتلي في سوريا فاعلن بالاتفاق معهما مبدأ الحياد على اساس « الصداقة لمن يصادقنا ، والمعاداة لمن يعادينا . »

وقد تجاوب الشرق لهؤلاء الاقطاب ، وافضى هذا التجاوب الى عقد مؤتمر باندونغ باندونيسيا ابتداء من ١٦ نيسان ١٩٥٥ ، فكان فاتحة المؤتمرات بين القارتين . وقد اشترك في هذا المؤتمر ٢٩ دولة كان بينها ١٤ دولة اسلامية ـ ١٦ منها اسيوية و ٣ افريقية . وكان هذا المؤتمر حدثا تاريخيا مهما ليس لانه كان يمثل اكثر من نصف عدد سكان العالم فحسب ، بل لان الدول التي تمثلت فيه لم تتورع عن ان ترسم لها سياسة الحياد الايجابي . وقد نصت عليه المادة السادسة من مقررات المؤتمر على الوجه التالي : « الامتناع عن استخدام التكتلات السياسية والعسكرية لخدمة مصالح ذاتية خاصة لدولة او مجموعة من الدول . »

بيد ان مقررات المؤتمرات تبقى حبرا على ورق اذا لم يقدر لها من يرعاها ، ولكن مؤتمر باندونغ ظل من بعد على كل لسان ، وعاش في كل ضمير لان الداعين له لا سيما جمال عبد الناصر حملوا لواءه ، واخذوا على عاتقهم تحقيق ما تقرر فيه . ولان سائر المؤتمرين تبنوا باخلاص مقرراته ، وتضامنوا لتحقيقها .

وكانت الدول الغربية تريد ان تضع حدا لتحدي جمال عبد الناصر ، ولكنها كانت تتردد خوفا من العواقب . ولكن ما ان اعلن الرئيس المصري تأميم القناة حتى انقضت عليه انكلترا وفرنسا وراء اسرائيل في تشرين الثاني ١٩٥٦ غير آبهة لكل عاقبة . فاذا بالدول الاسيوية

الافريقية التي اشتركت في مؤتمر باندونغ تخف لتأييد مصر ، وتعقد بالقاهرة ابتداء من ٢٦ – ١٢ – ١٩٥٧ مؤتمرا اخر اسمه مؤتمر تضامن الشعوب الاسيوية الافريقية وقد ضم ممثلين عن ٤٤ قطرا يبلغ عدد سكانها مليارا وخمسماية مليون نسمة ، اي ثلاثة اخماس سكان الكرة الارضية . وقرر ما يلي :

(١) تأييد الاماني العربية ، ولا سيما في فلسطين والجزائر والعقبة .

(٢) حق تقرير المصير لجميع الشعوب على اعتبار ان السيطرة الاستعمارية امتهان لحقوق الانسان .

(٣) تحريم الاستعمار بكل صوره واساليبه ،والتعاون على الكفاح ضده .

(٤) تحريم الاسلحة الذرية وتوجيه نداءين احدهما الى الدول الغربية ، والاخر الى موسكو بضرورة توجيه البحوث الذرية لخير الانسانية .

وخلال هذا المؤتمر هاجم اردني مشروع ايزنهاور وحمل عراقي على حلف بغداد، وندد لبناني بفكرة الاحلاف التي تبنتها وقتئذ حكومة بيروت .

ومن جهة اخرى فقد تصدى الدكتور فاضل الجمالي بالنقد لهذا المؤتمر في جريدته العمل التي تصدر ببغداد وقال بأن مقرراته لا يمكن ان تكون معبرة عن وجهة نظر دولية كما كان مؤتمر باندونغ ، لان الاشخاص الذين شهدوه لا يمثلون الا انفسهم . وخص المجالي المؤتمر بالنقد لمساهمة روسيا فيه متسائلا « انا لا ندري كيف يكون هذا مؤتمرا للتضامن الاسيوي الافريقي بينما تساهم فيه روسيا الاوروبية وهي اكبر دولة استعمارية ؟ »

والواقع ان روسيا لم تكن عاملا في هذا المؤتمر ، وانما شهدته ، كما شهدت من قبل مؤتمر دلهي (١٩٤٧) ، وعرضت فيه مساعدتها غير المشروطة شأنها في محاولة اكتساب الفرص ، اما نقد الدكتور الجمالي فلم يكن مصدره الا الفرقة التي كانت بين حكومتي مصر والعراق في حين ان الشعب العراقي كان يهلل ويكبر لكل بادرة اتفاق .

هذا وكانت غانا (الشاطىء الذهبي بافريقيا سابقا) قد احرزت استقلالها في اذار ١٩٥٧ بفضل رئيسها كوامي نيكروما ، فاذا بصوت جديد يرتفع من غربي افريقيا مطالبا بالاستقلال الى جانب صوت الرئيس جمال عبد الناصر الداعي الى الوحدة العربية والى صوت الرئيس حبيب بورقيبة الذي كان يدعو الى تكتل مراكش وتونس وليبيا والجزائر بعد استقلالها لتاليف رابطة عربيةافريقية هناك تقف بوجه الاستعمار ، وتتكاتف من اجل ادراك القوة والازدهار .

ولم يتورع الدكتور نيكروما حينما كان يمثل دولته في دورة الكومنولث التي عقدت بلندن ابتداء من ٢٦ حزيران ١٩٥٧ ، لم يتورع عن التصريح بالدعوة الى حلف افريقي يشمل في الجملة مصر للنظر في الشؤون الافريقية ، وللدفاع عنها . فاذا بمؤتمر افريقي اخر يعقد لمدة اسبوع في اكرا عاصمة غانا ابتداء من ١٥ نيسان ١٩٥٨ . وقد اشتركت فيه ثماني دول افريقية مستقلة ، وهي غانا ، والجمهورية العربية المتحدة، وتونس ، وليبيريا ومراكش، وليبيا ، والسودان ، والحبشة ، فضلا عن مندوبين من الجزائر ورئيس جمهورية مالي . وكان شعار المؤتمر : « يا شعوب افريقيا وحدوا انفسكم . »

وكان لهذا المؤتمر شأن كبير ليس لان عدد الشعوب التي تمثلت فيه بلغ ثمانين مليون انسان فحسب بل لان عواهل هذه الشعوب شهدته بنفسها : فحضره محمد الخامس (المغرب) وعبد الناصر (مصر) وسيكوتوري (غينيا) وكيتا (مالي) فضلا عن نيكروما (غانا) .

وفي الخطاب الترحيبي الذي القاه الرئيس نيكروما عند افتتاح المؤتمر استهله بالاشارة الى ان هذا الاجتماع هو الاول في التاريخ اذ يجتمع ممثلو الدول الافريقية المستقلة لتوثيق علاقات الاخوة والصداقة والتعاون بين بلادهم . وختم خطابه بقوله موجها الكلام الى المستعمرين : « ارفعوا ايديكم عن افريقيا . »

على ان الرئيس نيكروما لم ينس البلاد التي وضعت تحت الوصاية بعد الحرب العالمية الثانية . فقال عنها في خطابه : « ما زالت افريقيا في انتظار تحرر اخوان لنا في توغولاند الافرنسية ، والكامرون، وافريقيا الغربية وروانداورندي ، وتنجانيقا . ولا يمكن ان يستتب سلام دائم ما دام الاستعمار قائما على اي شكل من الاشكال . »

وقد وافقت الدول الثماني المشتركة في هذا المؤتمر مبدئيا على اقامة منظمة افريقية مهمتها ، علاوة على تحقيق انسجام هذه الدول في السياسة الخارجية ، السعي لمساعدة الدول غير المستقلة على نيل استقلالها .

على ان الدكتور نكروما لم يلبث ان تبنى ايضا مبدأ الحياد الايجابي اسوة بالبانديت نهرو رغم ان بلديهما عضوان في الكومنولث البريطاني . وفي غضون زيارته لبعض البلاد العربية في مطلع صيف ١٩٥٨ حطت به الرحال في القاهرة . فأجرى محادثات مع الرئيس جمال عبد الناصر صدر بعدها بيان مشترك جاء فيه :

المادة (٦) اتفقت الحكومتان على مساعدة شعوب الاقاليم الخاضعة للوصاية في تحقيق امانيها المشروعة ، كما اتفقتا على العموم على ان تنال جميع الشعوب الافريقية غير المستقلة حريتها واستقلالها .

المادة (٧) تعلن الحكومتان اتفاقهما على ان سياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز هي السبيل الوحيد دون استمرار الزلل بالنسبة لمختلف الدول في الصراع القائم بين القوى الكبرى .

وقد تضمن البيان توثيق العلاقات الاقتصادية بين البلدين ، وخص الجزائر وفلسطين بالتأييد .

ولما وضع الرئيس ديغول دستورا لاستفتاء المستعمرات الفرنسية عما اذا كانت تود البقاء في نطاق الوحدة مع فرنسا ، ام تريد الاستقلال ، على ان يجري الاستفتاء في ايلول ١٩٥٨ ، ذهب الى افريقيا في ٢١ اب ١٩٥٨ بغية اقناع المستعمرات بأن تصوت بنعم اي البقاء في نطاق الوحدة الفرنسية فتنادى وقتئذ بعض رؤساء الدول الافريقية الاسيوية لمؤتمر عقد بالقاهرة في ٢٢ اب من ذلك العام ، باسم « مؤتمر الرابطة الافريقية » وقد أيد مؤتمرات باندونغ والقاهرة ، واكرا السابقات . واعلن تأييده للانتفاضات العربية في كل مكان ، وطلب سحب الجيشين الانكليزي من الاردن والاميركي من لبنان اللذين نزلا في البلدين عقب الثورة بلبنان ١٩٥٨ . وتكلم في هذا المؤتمر رئيس اتحاد الكمرون معلنا خطورة الحالة في بلاده ، وان الشعب هناك ، سواء في المنطقة التي تحتلها انكلترا ، ام في المنطقة التي تقع تحت الاحتلال الفرنسي ينشد الاتحاد والاستقلال . وتعرض لدستور ديغول فشجبه ، ووصفه بانه مناورة يرمي بها الرئيس الفرنسي الى الحفاظ على الاستعمار . بيد ان الدول الاسيوية — الافريقية لم تصرفها السياسة عن واجباتها الاخرى . وفي كانون الاول من ذلك العام عقد في القاهرة ايضا المؤتمر الاقتصادي الاسيوي الافريقي الذي اشترك فيه ٤٥٠ مندوبا يمثلون ٢٩ بلدا ، فضلا عن الاعضاء المراقبين وبينهم بعض الاجانب ، وبحث هذا المؤتمر موضوع التضامن الاقتصادي حيال الاستعمار الغربي في مظهره الجديد من وراء السوق الاوروبية المشتركة ، وغيرها من التكتلات . ثم عقد مؤتمر اخر لهذه الغاية بالقاهرة في نيسان ١٩٦٠ باسم « مؤتمر التضامن الاسيوي الافريقي » واتخذ عدة مقررات طالبا فيها تحرير افريقيا اقتصاديا من الغرب ، كما طالب بتوسيع الروابط الاقتصادية مع الدول المناهضة للاستعمار . فكان هذان المؤتمران ، وما عقد بعدهما من مؤتمرات لهذه الغاية دلالة على وعي الشعوب الاسيوية الافريقية .

هذا وقد نشطت الدول الافريقية في سنة ١٩٥٩ — ١٩٦٠ لعقد مؤتمرات خاصة بها ، فعقد في عام ١٩٥٩ مؤتمران احدهما في كوناكري عاصمة غينيا ، والاخر في منروفيا عاصمة ليبيريا . وقد اشتركت الجزائر في المؤتمر الثاني وكان علمها يخفق بين الاعلام الاخرى . وصرح السيد حسين ذو الفقار صبري باسم الجمهورية العربية المتحدة ، بأن المؤتمر اكد عزم الدول المشتركة فيه على التعاون مع جميع الشعوب الافريقية على محو الاستعمار من كل افريقيا . ولما شرعت فرنسا تجري تجاربها الذرية في الصحراء الجزائرية دعا الرئيس الحبيب بورقيبة الى مؤتمر عقد في تونس خلال شهر كانون الاول سنة ١٩٦٠ . وفي الخطاب الذي القاه عند افتتاح المؤتمر كرر دعوته الى الوحدة الافريقية ، وقال : انها ضرورية لازالة الحدود الاصطناعية ، ونحن الان في عصر تحرر افريقيا ، وانني شخصيا اؤيد الوسائل السلمية التي تبقي الباب مفتوحا للتعاون ، ولا تقضي على الصداقة. ولكن ذلك لا يمنعني من حمل السلاح اذا اقتضت الضرورة ذلك ، ثم كانت سنة ١٩٦٠ حافلة بمؤتمرات اخرى من هذا النوع اهمها مؤتمر الدار البيضاء في كانون الثاني ، مؤتمر القاهرة في اذار من ذلك العام كما ان بعض المؤتمرات التي تكلمنا عنها كررت اجتماعاتها في تلك السنة وما بعدها فبدت اسيا وافريقيا بهذا التكتل والتناصر صفا واحدا ضد الاستعمار والمستعمرين وهذا التكتل الاسيوي — الافريقي بالاضافة الى جامعة الدول العربية ، والكتلة الاسيوية في جمعية الامم المتحدة كان خير مساعد للشعوب في نضالها ضد الاستعمار ، وكان من جهة اخرى افضل مؤيد للدول الفتية التي احرزت استقلالها وذلك خلال الازمات التي واجهتها في اعقاب الاستقلال . وهكذا فان غرسة الحرية التي نبتت في القرن التاسع عشر ، وترعرعت خلال الحربين العالميين ، والتي وجدت من يرعاها ، من بعد ، في الداخل والخارج ارتفعت في السنين الاخيرة ، وورفت اغصانها ، فأظلت الشعوب المستضعفة ، واعطتهم اسوة بغيرها ، اطيب الثمرات . « واذا اراد الله امرا يسر له الاسباب . »

محمد جميل بيهم

لحظة البكاء

☆

في لحظة البكاء
وانت والدموع اوشكت تغادر الضلوع للعراء
والشمس في انتظارها على رجاء
لكي تلون الدموع في الخدود بالضياء
في لحظة التطهر العظيمه
في لحظة انفرادك النبيله
في لحظة الصفاء
وانت قد خلعت نفسك القديمه
في لحظة العطاء
والنفس لم تعد نجيله
اقسم بان تظل مخلصا لفارس الاسى
للفارس الذي كساك ماكسا
اعطاك من حمايته
وصد عنك زحمة الذين يسرقون وحدتك
وانت قد مشيت تحت رأيته
حتى حضنت فرحتك
ففارس الاسى
الفارس الذي اعطاك روحه
يحب ان يراك ساعة الالم
في حالة من القسم
فلحظة البكاء عنده مقدسه !!

القاهرة **مجاهد عبدالمنعم مجاهد**

ساردانا بولوس بين الحقيقة والخيال

بقلم الدكتور سامي سعيد احمد

استاذ الدراسات الشرقية بجامعة دنفر بالولايات المتحدة الاميركية

* * *

تحدثنا الاساطير اليونانية ـ الرومانية من ان اخر ملوك الامبراطورية الاشورية كان ساردانا بولوس الذي تصوره لنا كشخص تغلب عليه صفة الانوثة وضعف الشخصية ، منغمس في حياة الدعارة والترف محب للظهور بمظهر النساء . وترينا المصادر الكلاسيكية من ان ما ورد عن هذا الملك من القصص قد اثرت على الكثير من مؤرخي تلك العصور وذوي العقول الكبيرة منهم فأخذوها كحقائق ثابتة . ولكن هذا لا ينفي من ان هناك من شك في صحتها فارسطو يسميه « ملك آشور النصف الخرافي الذي يقرن اليونان اسمه بالترف والتبذير الشرقيين (١) » وترك لنا فنانو تلك العصور صورا وتماثيل لسردانا بولوس هذا نراها الان معروضة في بعض متاحف اوروبا (٢) . وظل الكثير من مؤرخي العصور الوسطى والحديثة يأخذون ما ورد عنه مأخذ الحقيقة وقرنوا اسمه منذ منتصف القرن التاسع عشر ، اي بعد اكتشاف المعالم الاشورية في شمال العراق بالملك آشور بانيبال من ملوك الامبراطورية الاشورية المتأخرين (٦٦٩ ـ ٦٣٢ ق.م) (٣) . ولكننا لو قارنا بين ما نعرفه عن هذا الملك الاشوري الذي قضى اكثر سني حكمه في الحرب والاعمار ، وبين ما تسرده لنا المصادر اليونانية والرومانية عن ساردانا بولوس نرى بأن من الصعوبة بمكان قبول آراء الكثيرين باقرانهما . وان من الصعب جدا بل من المستحيل قبول اي راي يقول بكونه هو الملك الاشوري هذا . فهناك فرق شاسع بين شخصية الملك اشور بانيبال وبين ما ترويه الاساطير اليونانية والرومانية عن ملكهم الاشوري .

فديودورس الصقلي يخبرنا بان « ساردانا بولوس هو الملك الثلاثين بعد نينوس مؤسس الدولة الاشورية ، وهو اخر ملوك اشور الاقوياء . وكان على ولع عظيم في الترف والطرب اكثر من حكام اشور الذين سبقوه في الحكم . وليس هناك شخص خارج القصر الملكي يعرف هيئته او راى شكله . عاش كالمراة : جمل وجهه بالمساحيق ، غير صوته وكان يحوك وينسج مثل نساء عصره . ويقال ايضا من انه قد امر بأن يكتب على قبره في لغة غريبة بربرية (٤) . ويحدثنا نقولا الدمشقي من ان « ساردانا بولوس لم يحمل في حياته السلاح قط ولم يذهب الى الصيد والقنص (٥) » . اما اريانوس فيقول : « ان قبر ساردانا بولوس يقع قرب اسوار انكيالوس وفوق القبر تمثال الملك نفسه ويديه على بعضهما وكانه يصفق ومكتوب في لغة اشورية : ساردانا بولوس ابن اناكين دارا كيز الذي بنى مدن انكيالوس وطرطوس في يوم واحد ، وعلى هذا فانت ايها الغريب كل واشرب ورح نفسك لان جميع هموم الدنيا لا تساوي خردلة » (٦) . ويروي سترابون ، لنا نفس ما رواه اريانوس ويزيد في القول بان « ساردانا بولوس كتب ايضا ما نصه : ان ما ملكته هو ما وضعته في معدتي ومباهج الحياة التي متعت بها نفسي واما النعم المتعددة الاخرى فقد تركتها ورائي » (٧) . ولكن ما يسرده لنا كاليسثينس يختلف عما اوردناه اعلاه حيث يقول بأن هناك شخصين يحملان اسم ساردانا بولوس احدهما ذو عفة ونبل والاخر يغلب عليه الترف والتخنث . وقبر الاول في تينوي مدون عليه « ساردانا بولوس ابن اناكين داراكيز بن طرطوس وانكيالوس في يوم واحد » . وقبر الثاني في اندريالوس قرب طرطوس (٨) . ويصور اثانيوس نهاية سردانا بولوس بان غلب عليه الهلع عندما حوصر قصره فاضرم النار في بيته والقى بنفسه ونسائه واثاثه في النار (٩) .

والمصادر الرومانية تعطينا صورا اخرى من حياة هذا الملك الاشوري فكاشيوس ديو . وكثير من الادباء والمؤرخين الرومان صورا حبه للمتعة والطرب وكيف ان الشعب الاشوري ضجر من سلوكه الشاذ وفاليوس يصور لنا كيف ان السلطة قد انتقلت من الاشوريين الى الميدين

(1) Aristotle, «On Man in the Universe», New York 1943, p. 229.

(٢) له تمثال نصفي في الفاتيكان وثلاثة تماثيل نصفية اخرى في متاحف نابولي ، فلورنسا وثرمين في روما تمثله في لحية متدلية على صدره وشعر مسترسل طويل . وهناك صورة مرسومة على اناء ترجع في تاريخها الى القرن الخامس ق.م معروضة في المتحف البريطاني بلندن تصوره على جمل في ملابس نسائية ولحية مسترسلة تقوده امرأة وامامه ووراءه جمع من النساء يرقصن ويضربن الطنبور والقيثار. انظر مقالة الاستاذ Ludwig Curtis وعنوانها Sardanapal المنشورة في Jahrbuch des Deutschen Archäeolgischen Institut, vol. 43, 1928, pp. 281-296.

(٣) يعتبر الدكتور كوبمان من مؤرخي القرن التاسع عشر القلائل الذين شكوا في صحة الاخبار الواردة في الاساطير الكلاسيكية عن ساردانا بولوس وحذر المؤرخين من اخذ ما ورد بها كأمور تاريخية . انظر كتابه :

W. C. Koopman, Disputatio critica de Sardanapalo, Amsterdam, 1819. (4) Diodorus Siculus, II, 23-29 (5) Pauly-Wissowa, Real-Encyclopadie der Classischen Altertumwissenschaft, p. 2439 (6) Arrianus, Anabasis of Alexander, II, v; N. Streck, Assurbanipal und die letzten Assyrischen Konige bis zum Untergange Nineveh's Leipzig, 1916 pp. CCCXCVI-CDIII (7) Strabo, Geography, VI, Bk. XIV, 9. (8) Edward Meyer, Forschungen zur alten Geschichte, Vol. 1, Leipzig, 1892 p. 203; see

بسبب كون الاشوريين انذاك تحت حكم ساردانا بولوس الذي لم يكن له هم سوى الانس . فديو كاشيوس يخبرنا بان ساردانا بولوس دخل مدينة انطاكية يوم سقوطهـا واوعد جنوده بان يعطي كلا منهم الفي (٢٠٠٠) قطعـة نقدية اذا حفظوا المدينة من التخريب وفي انطاكية اعلـن نفسه امبراطورا وقيصـرا . وشيـد ساردانا بولـوس امبراطورية عظيمة ضمت الكثير من البلدان والاقطـار بناها على اساس سلمي ولم يبذل في تشييدها قطرة من الدم ودون ان يجبر الرعية على اتباعه بالقوة والجـور . ولكن سرعان ما انغمس في حياة خزي وعار . وانـه ، على حد زعم كاشيوس ديو ، هو المسؤول عن دخول عبادة الاله الاجابالوس الى روما ووضعه بنفسه امام تمثال الاله جوبيتر وحفه بانواع العظمة والابهة واخيـرا اقنع الناس واثر عليهم في انتخابه كاهنا لمعبد هذا الاله الاجنبـي الدخيـل وبيديـه ختـن نفسه حيث الختان كـان مـن المتطلبات والشروط التي يجب توفرها في كهنة معبـد هذا الاله . وسردانابولوس كما يروي قصته لنا كاشيوس ديو قد تزوج الى نساء كثيرات واحتفظ بالكثير مـن القيان والجواري في القصر . وكان يرتدي ملابس النساء ويتصرف مثلهن الى الحد الذي حف نفسه بالمحبيـن والمعجبين . وكان قد اقترن بزوجته الاولى كورنليا بـولا لرغبته في ان يكون ابا . وحفلات الزواج كانت على اتم ما تكون عليه من الابهة ولكن سرعان ما افترقا على اساس انه وجد عيبا في جسمها لم يلاحظه من قبل . ثم اتصـل بصورة غير مشروعة مع كاهنة معبد فستا المسماة اكويلا سيفيرا حبا في انجاب اطفال تغلب عليهم الصفة الالهية بعين الذكر منهم كاهنا اعلى والانثى كاهنة عليا . ويزيـد كاشيوس ديو بقوله « وفي اثناء الليل كان ساردانابولوس يتردد على حانات الخمور بملابس النساء ويمثـل دور العاهرة وقد خصص غرفة خاصة في قصره لاجـل ان يجلس فيها لاغراء المارة بالدخول بها واللهو معه وكانـه زوجة من زوجاتهم او جارية من جواريهم . وكـان لساردانا بولوس الكثير من الازواج منهم هيروكليس وكان

من عبيد القصر الذين هام الملك في حبهم هياما جنونيا . وصار لهذا العبد في البلاط الملكي نفوذ كبير شانه فـي ذلك شان الكثير من العبيد امثاله والذين وقع الملك فـي حبهم . ولكن هذه الاعمال اثارت السخط عليه من قبـل جنوده والناس اجمع دفعهم اخيرا الى الثورة وخلع الملك وقتله . وهكذا راح ساردانابولوس وذبح بيد من كـان واقعا في حبهم (١٠) . وقصيدة الشاعر الانجليـزي جورج جوردون بايرون « ساردانابولوس » تعطينا فكـرة عن الراي السائد في عصره عن قصة ساردانابولـوس وشخصه . ففي هذه القصيدة يظهر ساردانابولوس لنـا تقيا وورعا قتل بشجاعة واحب في حياته النساء كثيـرا بينما كان متزوجا بصورة شرعية الى امراة واحدة انجبت منه اطفالا وكان لديه جارية هام في حبها . وجوهـر قصيدة بايرون يدور حول عدم كون ساردانابولـوس شخصية قوية يتمكن بواسطتها من ادارة الامبراطوريـة بحكمة وقوة . نعم لقد ذكر لنا بايرون رذائل هذا الملـك ولكن ما سردوه لم يصل الى الدرجة التي نراها فـي المصادر الكلاسيكية . وبالاخير راح ساردانابولوس ضحية مؤامـرة ضـده دبـرت بين جنوده انتهت بانتخـاب ملك اكثر قوة منه ليدير دفة الامور المتردية ويحل مشاكل الوضع الراهن انذاك . وصار ساردانابولوس يخسـر اتباعه ومحبيه الواحد بعد الاخر حتى حوصر قصره اخيرا وما كان منه انذاك الا ان اضرم نارا حول عرشه احـرق بها حبيبته المفضلة ثم نفسه . وهناك الصورة التي رسمها ديلاكروا والتي تصور ساردانابولوس مضطجعا على فراشه في حلته الملونة ومجوهراته وحوله نساؤه المحبيات وقـد احضر حصانه اليه والى الخلف كانت النيران تشتعل في ارجاء القصر والجنود المهاجمين قد تمكنوا من دخـول القصر الملكي للفتك بالعاهل الخامل .

والان وبعد ان استعرضنا كل هذه الاراء نتساءل : هل ان شخصية اشور بانيبال كما نعرفها الان تماثل ما ذكره لنا هؤلاء المؤرخون والادباء عن ساردانابولوس ؟ وما هـي الاسباب التي جعلت الكثيرين حتى في وقتنا الحاضـر

---

also Pauly-Wissowa, op. cit. p 2443 (9) Athenaios, Bk. XII, 528-530. (10) Cassius Dio, Loeb Library, Vol. IX (11) Streck op. cit. vol. 1 and II; D.D. Luckenbill, «The Annals of Babylonia and Assyria Chicago, 1927, Vol. II.

(١٢) انظر القطع الاشورية في المصادر التالية خاصة ما يتعلق منها من الواح آشور بانيبال :

A. Parrot, The Arts of Assyria, trass by S. Gilbert and J. Emmons, New York, 1961 H. Frankfort, Art and Architecture of the Ancient Orient, London, 1958; R.D. Barnett, Assyrian Palace Reliefs and their influence on the Sculpture of Babylonia and Assyria, London, 1958; G.J. Gadd, the Stones of Assyria, London, 1936.

(١٣) انظر كتب Streck و Luckenbill المارة الذكر اعلاه .

(14) F.E. Peiser. Texte Juristischen un Geschaftlichen Inhalts, Berlin, 1896, No IX, pp 142-146

وهي عبارة عن نص رسمي اهدى بواسطته الملك اشور بانيبال قطعة ارض الى الجنرال لخدماته العسكرية ولتدريبه اياه في صغره علـى السلاح والحرب . (١٥) من الصعوبة ان نعتقد بان اشور بانيبال فعلا قد اتقن اللغات القديمة انظر :

A. Adams, and C Kraeling, City Invincible, Chicago, 1960, p. 108, 118. see A. Leo Oppenheim, Assyriology how and why?, Current Anthropology, 1, 1960, p. 412 ff.

(١٦) المعهد الشرقي وثيقة رقم ٤٢٤٨ وارقـام ١٠١٤١ و ٦٥٩٤
(17) A. Parrot, op. cit. p. 20, plate 24

(١٨) انظر كتاب الاستـاذ Streck المار ذكره صفحـة CLVIII; CCCLXXXVI

النجمة والمقهى

قبـل قبـل تحت العتمـــه
بيـــن الفتيـات الملتمه
تتراشـق فـي وسط الزحمه
والشمس العاريـة الاطـراف
فـي الشارع تسال عن كلمـه
فـي تلـك النظـرات النهمه
قبـل قبـل تحت العتمـــه
أكـوام اللذات علـى الاعنـاق
تساقـط مـن وهـج القمـه
وتئـن لرعشتهـا الاحـــداق
يا ويـل المشتـاق المشتـاق
يبحث عـن شبـه للنجمـه
والنجمـة غابـت فـي الافاق
يا ويـل المشتـاق المشتـاق
فـي الشارع يسال عن كلمـه
والنجمـة لا تحكـي للنجمه ؟

الرباط — علي العبيدي

خاصة بين من ليس لهم المام كاف ومعرفة تامة بتاريخ الشرق الادنى القديم ، يقرنون ساردانابولوس مع اشور بانيبال ؟ . فبالوقت الذي تذكر لنا المصادر الكلاسيكية بان ساردانابولوس هو ابن اناكين داراكسيز نعرف معرفة اليقين بان اشور بانيبال هو الابن الاوسط لاسرحدون الذي حكم بلاد اشور مـن (٦٨١ – ٦٦٩ ق.م) . واذا كانت المصادر الغربية القديمة تصور الملك الشرقي كشخص لم يخرج للقتال ولم يحمل السلاح فـان ما نعرفـه عـن اشور بانيبال لا يطابق هذا مطلقا فحوليات اشور بانيبال تخبرنا بانه كان يذهب بنفسه على راس الجيوش الاشورية لغزو مصر وسورية وبنفسه حارب بلاد عيلام مرات عديدة وهو الذي اخضع القبائل العربية التي ثارت ضد بـلاد اشور (١١) وان كانت المصادر اليونانية قد ذكرت بانه لم يخرج قط الى الصيد فان هذا يتنافى مع النحوت التي اتتنا من عصر اشور بانيبال والتي تصوره على حصانـه يصيد الاسود والحمير الوحشية والغزال (١٢) .وتتنافى كذلك مع الكتابات الاشورية التي تذكر حبه للصيد وولعه الشديد به (١٣) . ونرى اشور بانيبال في كتاباتـه يتباهى في مهارته الحربية واتقانه ركوب الخيل وضرب القوس واستعمال السلاح . ونعرف ايضا بان والده الملك اسرحدون قد خصص الجنرال نابو – شار – او صـور لتدريبه على العمليات الحربية والطعن والقتال (١٤) . والى جانب ذلك فقد ذكر لنا اشور بانيبال بانه قد درس علوم الفلك والرياضيات والغيب واللغات القديمـة علـى ايدي الكهنة . ونعرف بانه قد جمع في عاصمته اعظـم مكتبة في عصره وارسل الرسل والمبعوثين لجمع الكتب لها من كل مكان . وان معرفته القليلة في اللغات القديمة التي نعرف الان مبلغ صعوبتها تبين لنا حبه العميق للعلم والتعلم وصرفه الوقت الطويل فيها (١٥) . الى جانـب كونه غرم في العمران والبناء سواء في مركز عاصمتـه اشور او في جنوب العراق . ولهذا فلا يمكن ان يكـون ساردانابولوس هو الملك اشور بانيبال .

ولكن يظهر لي بأن قصة الملك ساردانابولوس قد نسجت من عناصر متعددة . فان بعض الاثار التي تشبه ما وصفه لنا سترابو واصحابه ممن اسلفنا ذكرهـم عن قبـر ساردانابولوس قد اكتشفت فعلا في بلاد الاناضول (١٦) . وبنفس الوقت فان اثارا تشبه ما وصفه اريانوس قـد اكتشفت فـي بـلاد اشور (٧) . ومـن المحتمـل ان ساردانابولوس الاسطوري هو بالواقع شخصية مركبة من حياة الملوك اشور بانيبال واخيه شمش – شموكين وولده الملك اشور – ايتيل – ايلاني والتي اختلطت مع بعضهـا بمرور الزمن وامتزجت امتزاجا قويا وصارت ملصقـة بحياة واعمال ملك واحد . فان نهاية ساردانابولوس التي صورها الكتاب الكلاسيكيون مطابقة لنهاية شمـش – شموكين ملك بابل واخ اشور – بانيبـال (٦٦٨ – ٦٤٨ ق.م) حيث نعرف بانه قـد رمى بنفسه الى النـار التي اشعلها بقصره بعد ان سقطت عاصمته بابل بايدي جيوش اخيه المنتصر (١٨) . ونعرف ايضا بان الملك الذي خلف اشور بانيبال وهو ولده اشور – ايتيل – ايلاني لم يذهب الى حرب ولا صيد قط وارسل الى الجنوب اخيه سن – شار – اشكون لقمع الثوار البابليين . ولولا المساعـدة العسكرية التي اسداها الجنرال سن – شوم – ليشير له بعد وفاة ابيه اشور بانيبال لكان من الصعب عليه الحصول على العرش الاشوري . ومنذ صعود اشور – ايتيـل – ايلاني على العرش بدأ عصر انحطاط دولة اشور واخـذ حكام المقاطعات بالاستقلال عن الامبراطورية الاشورية . واخيرا نرى بأن اخ هذا الملك يزحف على البلاط ويأخذ الملك بقوة السلاح . فربما ما روته الاساطير الكلاسيكية عبارة عن قصص مبالغ فيها من حياة اشور – ايتيـل ايلاني الذي صورت نهايته كنهاية عمه ملك بابل ونسبت قصصه وموته خطأ الى والده اشور بانيبا ل الذي هو فعلا اخر ملوك آشور الاقوياء .

دنفر – الولايات المتحدة — سامي سعيد احمد

الروائي هــول كين

للكاتب الانجليزي باتريك بونتون

ترجمة مبارك ابراهيـم

***

ولد « هول كين » عام ١٨٥٣ وتوفي عام ١٩٣١ . وقـد نفدت اليوم طبعات كتبه كلها ولما يمض على وفاته خمسة وثلاثيــن عامــا .

كان « هول كين » يفخر دائما بأنه كسب من رواياتـه اكثر مما كسب اي رجل امسك بالقلم . وهــذا حــق فان رقم المال الذي جمعه من بيع كتبه ومن اجور اقتباسـهـا للمسرح والسينما كان رقما خياليــا .

ولن يستطيع كاتب من كتاب اليوم مهما تبلغ مكانتـه من الشهرة وذيوع الصيت ان يكون ندا لهول كين فيمـا ربح وذلك لان كتاب هذا العصر قد جعلتهم الضرائـب الباهظة كسحاء مقعدين . ولقد ظل هذا الكاتب سنيـن ذات عدد يدر عليه قلمه خمسمائة جنيه في كل اسبوع..

اما مولده فكان في مدينة رنكورن من اعمال مقاطعــة « شيشير » وذلك منذ اكثر من قرن . وقد قضى الكثير من ايام صباه في الاحياء الفقيرة بمدينة (لفربول) . ومن مناظر البؤس في تلك المدينة استمد حنوه على الفقـراء والبائسين كما استمــد ذلك الحنو علــى المكدوديــن والمجهودين من ان اباه كان حدادا قد اجبرته البطالة على ان يغادر قريته في جزيرة مان سعيا وراء القــوت ..

وقد ارسل « هول كين » يوم كان طفلا ليعيش مع جديــه في كوخ اتخذ سقفه من البوص في قرية في شمال تلك الجزيرة . وكانت جدته تجيد قص الحكايات الشعبية التي كان يتوارثها الاباء فيورثونها ابناءهم وبناتهم . وكانـت تجد في هذا الصبي مستمعا يجيد الاستماع . ومنصتا يحس الانصات كلما جلست واياه الى جانب الموقد فـي ساعات الغسق . وكان الناظر اليه يومئذ يرى في عينيـه بريقا يتلألأ وهو يستمع الى الحكاية الاسطورية التي تقصها جدته . وهي حكاية بلغ من روعتها انها كانت تذود النـوم عن اجفانه . وانها جعلته ينسج في مخيلته الخيــوط لقصص الجنيات والساحرات وملاحم الابطال الاسطوريين.

ولما عاد الى لفربول عاش حياة قوامها رياضــة النفس على احتمال الجهد وعلى العيش عيش التقشف والكفاف..

ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره تتلمذ لاحد رجال المعمار ولكنه لم يبد الا ميلا قليلا لتلك الحرفة . وكان بدلا مــن الجلوس الى لوحة الرسم يقرأ في نهم زائد كل ما تقع عليه عينه . وكان اذا جف الليل طاف بالنوادي الادبية ينشد القصائد ويلقي المحاضرات في مختلف فنون الادب .وكان يقوم بمحاولات غير محددة الهدف بكتابة المقالات . ونظم القصائد . وانشاء المسرحيات والقصص التاريخية .وكان قليل النوم كثير السهر فساءت صحته واعتلت بنيتــه . وعاد الى قومه في جزيرة مان ليسترد العافية . وكــان هناك واحد من اعمامه يعمل ناظرا لاحدى المدارس فلمـا مات اخذ (هول كين) مكانه . وكان ذلك على غير مــا يقضي به القانون . ولم يكتف بهذه النظارة بل حمل معها اعباء كل عمل خارجي يتصل بها – كما جرت به العادة في ذلك الحين – ككتابة الوصايا لجيرانه من الفلاحيــن . وكتابة رسائل الحب والغرام لشباب القرية . وهــي الرسائل التي كانوا يبعثون بها الى حبيباتهم اللائي كـن يعملن في القرى الاخرى من قرى تلك الجزيرة ..

وفي اثناء ما كان يعمل كمدرس مؤقت عثر لاول مــرة على قصائد من شعر دانتي جبريل روستي – المتوفــي عام ١٨٨٢ – وقد فتن كين بالخيال المبدع الذي كــان يشيع في قصائد ذلك الشاعر فظل يلتهم تلك القصائـد التهاما . ولما استقر به المقام في (لفربول) مرة اخـرى طفق يحاضر الناس في حماسة بالغة مشيدا بفضل بطله الجديد . ثم بدأ التراسل بينهما . وكان ثناؤه قد مـس عاطفة الغرور عند ذلك الشاعر المكتهل الذي أنهكه المرض واخرت به المخدرات وعجلت به الى نهايته . وظلا كذلـك شهورا عديدة وقامت بينهما آصرة عجيبة من اواصــر الصحبة . وكانت خاتمة المطاف لتلك الصحبة ان سافـر صاحبنا كين الى مدينة شلسي حيث يقوم منزل روستي بأثاثه القديم . وبمجامره النحاسية . وبكؤوسه ومصابيحه وصلبانه . واقام هناك في تلك الغرفة التي أقام بها مــن قبله الشاعران جورج ميريديث وسونيبرن وظلا صديقين متلازمين الى ان مات روستي بعد سنتين من تلك الاقامة وذراعا هول كين تحيطان به .. وقد سجل هول كيــن قصة تلك الصحبة في كتابه الذي سماه « ذكريات عــن دانتي جبريل روستي » . وهو الكتاب الذي نشره عقــب وفاة صديقه .. ومما جاء في ذلك الكتاب انه عندما كان النوم يجافي عيني روستي كانا يجعلان من الليل نهــارا وكانا يجلسان معا يناقشان موضوعات المقالات التي كــان هول كين قد بدأ يبعث بها الى الصحف والمجلات . وكانـا يقومان معا بعملية التشريح الدقيق للحبكة التي اصطنعها هول كين لروايته التي سماها « خيال جريمة » ..

وكان روستي يشجع صاحبه ويستحثه على المضــي قدما فيما هو بسبيله ويقول له : ولم لا تجرب قلمك انشاء رواية تدور حوادثها في جزيرة مان فتصبح بعـد ذلك محدث الجزيرة وقصاصها . وانه لشرف تتطـاول لـه الاعنـاق ..

وتردد صدى تلك الكلمات في اذني هول كين بعد موت

صاحبه فبدا يحيك نسيج حبكة لقصة جديدة فكتب روايته التي اسلفنا ذكرها وهي «خيال جريمة» . ثم اتبعها بروايته الاخرى « ولد هاجر » . وكلتاهما لم تلقيا عند الجمهور الا نجاحا ضئيلا .. وقد جعل مشاهد القصتين تقوم فوق مشارف جبال كمبرلند حيث ولدت امه ..

وبدا له بعد ذلك ـ وقد كان به دائما شوق شديد الى النجاح ـ ان يهتدي بمشورة روستي في انشاء رواية تدور حوادثها في جزيرة مان فالف روايته التي سماها « قاضي الجزيرة » وقد بلغ بها ـ في فن الرواية ـ غاية المجد البعيد . وكانت تلك الرواية اول كتاب يكتب عن حياة اقوام تلك الجزيرة . وقد صور فيها العادات والطقوس الغريبة التي كانت لا تزال تخطو خطواتها في ارجاء تلك الجزيرة .

وظل رقم المبيع من كتبه يقفز ثم يقفز ثم يمعن في القفز . فقد بيع من روايته MANX MAN التي ظهرت في عام ١٨٩٤ اربعمائة الف نسخة في بريطانيا وحدها . وهذا عدا ما بيع من ترجمات تلك الرواية في مختلف اللغات .. وهذا الرقم يعد رقما منخفضا اذا قيس الى ارقام ما بيع من رواياته التالية فقد بلغ المبيع من رواية « المدينة الخالدة » مليونا من النسخ .. ولم يتوان هول كين في انتهاز كل فرصة لابلاغ صيته الحد الاقصى من الذيوع فقد كان يعد من ابرع البارعين في فن الاعلان والدعاية . وكان لا يتوانى في التحدث عن نفسه .. وما عرف عنه يوما وانه رفض التحدث الى واحد من الصحفيين . وكذلك لم يترك فرصة اتيحت له للخطابة الا افترصها ..

وكان هول كين شخصية قد أوتيت من الغرابة والغموض نصيبا موفورا . ومن امارات تلك الغرابة انه لما تزوج واستقر به وبزوجته المقام في قصر جريبا بالقرب من مدينة دوجلاس ـ في مدينة مان ـ بدا يظهر بمظهر النبلاء اصحاب المزارع والقصور . وكان يلذ للمتنزهين من رواد تلك الجزيرة ان يمروا بتلك الناحية ويجوسوا خلالها ليشهدوا ذلك المؤلف النابغة وهو ممتط حصانه ..

وكان هول كين فيه مشابه من شكسبير . وكان هو يبذل كل ما يستطيع من جهد ليبلغ من تلك المشابهة غايتها فكان يجعل لحيته مستدقة الاطراف كلحية شكسبير وكان يترك شعره غير مرجل تشبها بشكسبير . وكان يتخذ لنفسه هيئة الاقوام البوهيميين ويتزين بزيهم حتى انه لما زار امريكا كان الناس ينظرون اليه متعجبين وهو يسير بينهم مهرولا يتمايل ذات الشمال وذات اليمين وهم يحدجونه بابصارهم في زيه الغريب وقبعته العريضة وسراويلاته التي لم تعرف طريق « الكواء يوما » ولم يلق هول كين في حياته يوما بلغ فيه الغرور عنده اقصى غايته اشد من ذلك اليوم الذي منح فيه لقب « الفارس » جزاء له على ما قام به من دعاية في سبيل انجاح قضية الحلفاء في الحرب العالمية الاولى .. وكان من فرط عنايته بملازمة جانب الدقة في تاليف رواياته انه كان يزور كل مكان يرد ذكره في رواياته . ولذلك فقد طاف بانحاء جزيرة ايسلند وبأرجاء ايطاليا ومراكش وروسيا. وكان يتحدث الى الرؤساء والامراء والملوك . وقد حظي مرة بلقاء البابا ..

وقد بلغ من فرط صراحته انه قال ان كل حبكة روائية في كل رواية من رواياته انما هي منقولة بحذافيرها من اسفار العهد القديم فروايته The Manx Man انما هي قصة « داود » و « اوريا » ، و « اوريا » هذا هو اوريا ابن حنان الذي غلبه داود على زوجته . وذلك بحجة غيبته غيبة منقطعة . وضمها الى زوجاته الاخريات ليبلغ عددهن المائة ..

ورواية « المدينة الخالدة » انما هي قصة « شمشون ودليلة » . ورواية « المستعبد » انما هي قصة « عيشو » و « يعقوب » . وهول كين كان يرى ان المشكلة الدائمة في هذه الدنيا هي الاقتتال الدائم بين الهوى والواجب . ولذلك فقد كان وكده وهمه في كل رواياته هو التنفير من الرذيلة والكشف عن معايبها ونقائصها . وكان جمهور القراء يلتهم كل ما يكتبه التهاما .. وكان هول كين يزعم انه قرا اسفار العهدين القديم والجديد قراءة تثبت ودراسة سبع مرات . وكان اشهى امانيه ان يوفق الى كتابة كتاب عن حياة المسيح . وكان يريد ان يتوج بذلك الكتاب ثماره الادبية كلها . وان يجعله خير مختتم لآيات نبوغه وعبقريته .. وهو لذلك قد شمر عن ساعد الجد وجمع مراجع الكتاب المنتظر . وظل ثلاثين عاما من اعوام حياته وموضوعات ذلك الكتاب تداعب خياله . ولكن هذه الامنية الغالية قد فاته ادراكها . وأعاقه عن بلوغها ما انتابه من مرض وسقم .. وعند موته ترك لخلفه مخطوطا ضخما يكاد لا يقرا في كثير من نواحيه .. وقد بلغ عدد كلمات ذلك المخطوط اربعة ملايين كلمة .. واستخدم ابناؤه خبيرا من خبراء الكتب ليختصر تلك الموسوعة الى السدس من حجمها . واخيرا نشر هذا الكتاب عام١٩٣٨ ولكنه نشر كتب له الدثور وهو لما يفارق جدران المطبعة..

ومات هول كين في جريبا عام ١٩٣١ وكان قد بلغ الثامنة والسبعين من عمره . وقد خلف ثروة قدروها بخمسين ومائتي الف جنيه اقتسمها ولداه فيما بينهما . وهما اللذان كانا عضوين في مجلس النواب يمثل كل منهما جبهة غير تلك التي يمثلها اخوه فكان احدهما من نواب حزب العمال . وكان الاخر من حزب المحافظين ..

وكان هول كين كان ينتابه في حياته احساس بجحود الناس ونسيانهم فكان يردد دائما في لهجة يخالطها الاسى : اني اعرف حق المعرفة ان اختلاف النهار والليل ينسي ..

القاهرة — مبارك ابراهيم



بولس غانم

الزجل اللبناني

بقلم بولس غانم

* * *

لكل امة شعراء موهوبون يحملون طابعها الخاص بها المميز لها ، يحسون باحساسها وينطقون بلسانها ويلهجون بلهجاتها التي قبسوها اطفالا من افواه امهاتهم وتبادلوا الفاظها عذبة شجية مع اترابهم ، فنشأت من هذه الالفاظ والمصطلحات لغة طبيعية غير مصطنعة ولا مكتسبة ، تعذب في القلوب وتخف على الاسماع وتسير على السنة عامة الشعب الذي يفهمها دون ما حاجة الى الرجوع الى معجم يستشيره او معلم ينيره .

بهذه اللغة المحببة المفهومة تذكى نيران الوطنية وتستثار الهمم الخامدة وتوقظ الشبيبة الغافلة ، وتخلد الامجاد والافكار ، وتحتفظ القومية بكيانها .

وباللغة العربية الفصيحة خاطب الشعراء والبلغاء معاصريهم من العرب الخلص ، فأسمعوهم يوم كانت هذه اللغة هي لغة التخاطب المفهومة ، وبهذه اللغة الفصحى خاطب الله العرب بلسان قرآنه الكريم ، فهداهم بعد ضلال، وردهم اليه بعد غواية .

وبلغة الاغريق القديمة التي كانت لغة التخاطب هز هوميروس قلوب الشعب الاغريقي برائع بيانه في الياذته، فتداولتها الالسنة وسحرت بها الباب ابناء الامة ، ولو نشأ اليوم في اليونان شاعر يبز ببلاغته وسحر بيانه هوميروس ، فوضع باللغة اليونانية القديمة ملحمة تسمو على الالياذة لما قراها قارىء ولا تغنى بها مغن .

والشعراء الناطقون اليوم باللغة الفصيحة على كثرة المجيدين منهم ، لا يقرأ شعرهم ولا يطرب لبيانهم الا الصفوة المختارة من الشبيبة المثقفة ، ولذلك نرى اثرهم ضئيلا في استنهاض همم الامة العربية واحياء آثارها ونشر فضائلها وامجادها ، وبث روح التضامن والوطنية بين ابنائها ، لان الشاعر منهم اذا نزل الى مستوى فهم العامة رمي بالضعف والركاكة ، ولان عامة الشعب العربي لما ترتفع بعد، بالثقافة العامة والتعليم الاجباري، الى مستوى تفهم معه اولئك الشعراء المحافظين على تراث امتهم النفيس العريق .

والى ان يجيء الزمن الذي فيه نرى هذه الامة الكريمة وقد ارتفعت فيها نسبة المثقفين بين ابنائها بفضل فرض التعليم الاجباري فلا بد لنا ، بل من الواجب علينا ، ان نفسح مجالا بين ظهرانينا للزجالين ، شعراء الشعب ، الذين تدين لهم البلاد العربية ، ولا سيما لبنان ، بكثير من الروائع الادبية التي اثارت حنين المغتربين عن لبنان واذكت روح الوطنية بين ابنائه ، والهبت نار الثورات بين رجاله ، وارخت لامجاده واثاره ، ومكنت العامة من تذوق معاني الشعر العربي الفصيح والسير في مسارح خياله .

قال بعض شعراء الفصحى :

لو كان لي قلبان عشت بواحد وتركت قلبا في هواك معذبا

وقال صديقنا احمد رامي لا فض فوه :

فاذا ضحكت فكل شيء ضاحك واذا بكيت فكل شيء باكي

اخذ هذين المعنيين فقيد الادب المرحوم رشيد نخله فعبر عنهما بزجله السائر ، فقال في المعنى الاول :

لو كان لي قلبين قلب بعيش فيه وقلب تاني في هواك بعذبو

وقال في المعنى الثاني :

وان بكيتي الكون من أجلك بكي وان ضحكتي انهز عرش الملكي
كل شي ربي خلق حسن وجمال أعطى البشر قيراط والباقي لكي

الا ان الاف اللبنانيين يروون زجل رشيد نخله ولا نجد عشرة من الادباء يروون فصيح أبيات الشاعرين .

وقد كان لشعراء الزجل في لبنان اثر ملموس في توجيه سياسة الدولة والحكام وقد كان امراء الجبل يقربون هؤلاء الزجالين اليهم ويستعينون بهم على النكاية باعدائهم والنيل منهم وعلى التغني بمآثرهم والدعاوة لهم ، شأنهم في ذلك شأن الخلفاء الامويين الذين قربوا اليهم امثال الشاعر الاخطل ، بل ان بعض الامراء امثال فخر الدين المعني وابن سيفا كانوا يتفاخرون بازجالهم ويتهاجون ، وقد نقل الينا التاريخ زجلا بعث به ابن سيفا الى فخر الدين المعني ، يعيره فيه بقصر قامته فيقول :

جونا الطوال يا نصلة السكين يا سلسلي مذهبي يا سيف علي الدين
جونا القصار لا شور لا تدبير ضفادع تقعقع في قراني البير

فرد عليه الامير فخر الدين المعني بقوله :

نحنا قصار وفي عين العدو كبار انتو خشبحور واحنا للخشب منشار
وحق طيبا وزمزم والنبي المختار ما بعمر الدير الا من حجر عكار

ولما اوشكت الفتنة ان تقع ، في اوائل القرن التاسع عشر ، بين الشيعة والدروز كاد احد الزجالين وهو ابو نجم الفطايري قيدوم الدروز يحل السلام محل الخصام اذ كتب الى زميله زجال الشيعة يقول :

يا بو علي خلي الصداقه بيننا قبل ما العمر انقضى خليه يتم
قصدهم بيناتنا يرمو البلا متل ما الشيطان طفى حوا وأدم

وكان من الاسباب التي دعت الى انتشار الزجل ، جهل الشعب العربي في القرون المتأخرة باللغة الفصحى . وكان من اقدم الزجالين في لبنان ابن القلاعي المشهور الذي كتب تاريخ الامة المارونية بالزجل مما ساعد على اقبال ابناء الشعب على حفظ تاريخهم ، ثم تلاه كثير من الزجالين فتغنوا بمآثر ابطالهم امثال فخر الدين ويوسف بك كرم وابي سمراء غانم البكاسيني كما لجأوا الى استنهاض الهمم والدعوة الى النفور من الظلم بازجال كانوا يسمونها « الحداء » طالما رددها الدروز في ثورتهم على ابرهيم باشا وعلى العثمانيين .

ثم انتشر هذا الفن وقسمه اربابه الى انواع اكثرها على وزني الرجز والرمل ، واشهر هذه الانواع « المعنى والقرادي » .

وكان على راس طبقة الزجالين المتأخرين رومانوس رعد حنينه الملقب بابي علي البكاسيني الذي ارخ له وجمع ازجاله وطبع ديوانه الاديب المدقق جرجي نصر البكاسيني.

ومن زجل « المعنى » المأثور « المطلع » الذي جادت به قريحة الشاعر خليل اليازجي في الحنين الى لبنان ، ذلك حيث يقول :

يا طير صوب بلادنا خدني معك جسمي أرق من النسيم شو بيمنعك
قلبي بتمنعني دموعك والبكا خايف تبلل جانحي من مدمعك
قلتلو نيران قلبي من الجوى بتنتشف التبليل وما بتلدعك

وقول الشيخ ناصيف اليازجي متشببا بغادة جميلة :

سوسحتني في ميلة عطافك عود القنا يتبارك الخلاق
سوسحتني في ميلة عطافك مرخي جدايل سود عاكتافك
خصرك شكا من تقل اردافك يا بوالعيون السود والحاجبالمقرون
خط القلم سطرين حرف الالف والنون
ما متلهم سطرين في الاوراق

وتلا هؤلاء كثير من الزجالين اسموا انفسهم بالنسور والشحارير والزغاليل احقهم بالذكر عبدالله غانم مؤلف ديوان « العندليب » الذي تتغنى بزجله فيروز فتقول :

دقت على قلبي وقالت لي افتحو لتشوف قلبي انكان بعدو مطرحو

ثم صاحب « اغاني الضيعة » اميل مبارك وميشال طراد مؤلف ديوان جلنار واسعد الخوري الفغالي الملقب بشحرور الوادي الذي امتاز بحسن السبك واختيار الالفاظ ، وسبق معاصريه باجادة فن « القرادي » ومن قوله يخاطب دعجاء حوراء :

عن صدري ردي جفونك لا تزتي رماح
ربي مدور بعيونك فبركة سلاح

وزميله الشاعر الزجلي المبدع خليل ايوب الحتي الداموري مؤسس الصحافة الزجلية الذي يعود اليه الفضل في احياء هذا التراث اللبناني العريق .

ومن نوابغ الزجالين فارس نصار الذي امتاز على اقرانه بحسن اختيار الفاظه وجمال توررياته .رأى ثرية في موقف مريب فحرص على كتمان سرها ، ثم راته في حفلة زجل حافلة ، فازدرته ، فنظر اليها وقال :

كان لي زمان وكنت في عز الصبا كنت فرق جوخ عا العالم جبا
يا لابسين الجوخ لا تتكبروا ياما سترنا الجوخ في ذيل العبا

ومن الزجالين المعاصرين فتى متقد الذكاء هو يوسف طانوس عبدالله الملقب بزغلول بكاسين ، على انه يؤخذ على زجل شعراء الفصحى انهم يساقون طبعا الى تضمين ازجالهم كلمات فصحى تشوب جمال قصائدهم ، كما يؤخذ على اكثرهم اقتصارهم على التشبب بالنساء ووصف المناسبات واعتمادهم على المحسنات اللفظية واغفالهم دعوة الشعب الى النهوض الى مستوى اخلاقي وطني كأن يذكروه بعادات قومه ، ويشيدوا بمآثر ابطال لبنان ورجالاتهم وحث ابنائه على التمسك بتقاليد ابائهم ، والعودة الى القرية ، تلك الام الرؤوم التي يقوم عليها مجد الوطن ورخاؤه والتي غذاهم برها ، واسكرهم كرمها ، وظللهم زيتونها وصنوبرها ، واغناهم توتها قبل تفاحها ، تلك القرية التي خلقت منهم رجالا شجعانا ، ذوي سواعد مفتولة وجنبتهم شر المدن ورذائلها .

« ديوان خبز وخمر » وقد حدا بي الى هذا البحث الموجز ، ديوان وضعه بين يدي فتى من مواطني غض الاهاب مفتول الساعدين ، حيي الناظرين ، مشتعل ذكاء ووطنية هو الشاعر الزجال سعيد يوسف حرفوش الذي ارتوى من عين ذكاء بكاسين واستظل بفيء غابتها ، فألهمته وحيا وغذته وطنية .

عاش في مزرعته الرمانة في بيت « فلاح مكفي وسلطان مخفي » فانطبعت في ذهنه صور الصخور الصلدة واشجار البلوط الخالدة واوكار النسور ومروج الغار والبنفسج المطلة على بحر الفينيقيين اجداده ،وقد كان قد اندمج في سلك الجندية فثار به الحنين ودعاه الى مسقط راسه فالقى بالسيف ، وتقلد المحراث ، اداة السلم والحياة ووضع ديوانا من الزجل الرقيق البليغ ، دعا به الى المحافظة على تقاليد لبنان الموروثة واخلاق ابنائه الحميدة ، ومن هذا الديوان نقتطف المقاطع الاتية :

قال في وصف حقل له يدعى جوار البنفسج :

واغفا شي غفوة شهر عصخورك وأوعا وقطف للحلو زهورك
وفرفط على هالارض زعرورك وعبي بقلبي صوت عصفورك
ووعي الدني ع جفنة طيورك وتكون كرمي وكون ناطورك

وقال في وصف « نحلة الشير » :

كلمات من القلب

ان يخفق القلب ، فلا تابهي
ما زال يروي قصة من أسى

قد كان جوعان الهوى ، حائرا
جفت رؤاها ، وانطفى وهجها

وان بكى لا تمسحي دمعه
وحاذري ان تسعفي جرحه

كوني له أما كوني أبا
فهو شقي .. تائه .. حائر

وهدهدي آماله .. بالمنى
فروحه منهوكة بالرؤى

يا أنت ، لو تدرين أي الدنى
وأي فجر غامر بالضيا

لقلت : هذا شاعر كاذب ...
لكنني سوف اشق الحياة ...

وسوف ابني عالي شامخا
فالشمس لا تطفىء نيرانها

ولا تمنيه بما يشتهي
ومن جحود ، وهو لن ينتهي !

ينبش عن دنيا طواها التراب
يوم مضى العمر وولى الشباب

لانه يشقى بغير الدموع
فجرحه حب وشوق .. وجوع

وحاذري ان لا تكوني امرأه
والنار في أعماقه مطفأه !

وفجري في جانحيه الامل
وهو يمني روحه بالعمل

يتوق ان يرقى اليها الفؤاد
أريده يطلع خلف الرماد

او مستهام بالرؤى ، واهم
بقوة ... وانفها راغم

كالشمس رغم الموت رغم العذاب
كآبة الارض وحزن السحاب !

الكويت — راضي صدوق

وهونيك نحله غادي بكير   قبل الشمس والجو عصف رياح
نحمي جوانح سعيها عالشير   وصبح وعشيي تقلد الفلاح

وقال في وصف معبور النسور :

دخلك يا ربي ليش هالمعبور   صبح لوحدو معتم ومهجور
لا صوت ، لا خشي ، لا ريشي   لا نسر ، لا حسون ، لا شحرور
وبدارنا لا عيد   لا رقص لا غناني
لا عرق لا نبيد   لا قداح لا قناني
لا سلال لا زواويد   تحت السندياني
وهالكان يغدي عالكرم دغشي   مات وبايدو حامل المعدور
القيمي لحافو والعشب فرشي   وريحة ثيابو المسك والبخور

أفلا يهز الفلاح اللبناني وقوف هذا الشاعر على معبور النسور ملعب صباه ومهد احلامه ، وقفة امرىء القيس على الرسوم والاطلال ، بل الا يشجيه ويستحثه على العودة الى حقله وكرمه ، وصف هذا الفلاح لصاحب الكرم الذي مات ومعوله في يده .

ويقول في وصف سنديانة البيادر الجبارة :

يا واقفي عالكون بعلوك ناطور   قديش صرلك عالبيادر ناطرا
ومختيري بها الارض من جيل البعيد
جيل الحروف السود وكواخ الصخور   واللقش والقلفون قبل المصرا
وخبز المتق مع كوالك هالنبيد
وعمتلعبي بها الريح وتكاغي العصور   وفنودك بها الجو تعقد قنطرا
مع كل صبح وللسما تعطي مواعيد
وتشنشلي طرابين خضرا للشهور   شماسي ورق بالشمس فيي مدورا
زنود بخصور ، نهود بعنوق عناقيد
وقديش عا قرميتك لعبوا النسور   ويكمكمو بالليل حد المشحرا
ويتنفضوا بها التلم ويطفوا الوقيد

الا ان هذا الشاعر الزجال وامثاله من دعاة الشعب الى العودة الى الريف واستغلاله ، والاستمتاع بجوه وجماله ، لجديرون بالتشجيع ، وبأن تنشر الحكومة دواوينهم على عامة الشعب اللبناني ، ليعود المزارع الى محراثه في زمن اقفر فيه الريف اللبناني ونزلت الفاقة بأبنائه .

بكاسين ــ لبنان   بولس غانم

جورج انطونيوس — القس اسعد منصور — جريس الخوري ايوب

بقلم البـدوي الملثم

* * *

١ ــ جورج انطونيوس

ولد بالاسكندرية عام ١٨٩٢ وتلقى علومه الابتدائيـة والثانوية في كلية فكتوريا ثم في جامعة كمبردج ببريطانيا، وحصل على شهادة بالهندسة وعمل في بلدية الاسكندرية. وبعد الحرب الكبرى التحق بالخدمة في حكومة فلسطين وكان المساعد العربي الاول لمدير المعارف ، وسرعان ما هجر عمله في حقل المعارف وانتقل مساعدا للسكرتير العام وارتبط به مباشرة في سائر اعماله . وعندما قصد السر جلبرت كلايتون ، السكرتير العام لحكومة فلسطين ،المملكة السعودية لابرام المعاهدة البريطانية ــ السعودية اختـار انطونيوس رفيقا له في هذه الرحلة .

وخلال السنوات التي أمضاها موظفا رئيسيا في حكومة فلسطين كان يجاهر بمقته للسياسـة التي انتهجهـا البريطانيون لتهويد فلسطين ، وتشريد اهلها الاصليين واغراقها بالهجرة المشروعة وغير المشروعة . وعـاش انطونيوس معتزا بعروبته ، مفاخرا بالامة التي تحدر منها، مشيدا بالخدمات التي قدمها العرب للحلفاء في الحرب الكبرى التي شنوها على الاتراك طمعا بتحررهم واستقلال بلادهم ، وكان يعتبر واحدا من كبار الكتاب البريطانيين الخمسة في حكومة فلسطين .

وفي عام ١٩٣٧ ادلى انطونيوس بشـهادة امام اللجنـة الملكية البريطانية التي جاءت فلسطين للبحث في بواعث الاضطرابات والثورات التي اجتاحت فلسطين منذ وضع البريطانيون اقدامهم فيها لقيام الوطن العربي . ولقـد تميزت شهادة انطونيوس بالعمق والصراحة والمعلومات الدقيقـة .

وفي عام ١٩٣٩ انتخبته الهيئـة العربيـة العليا فـي فلسطين سكرتيرا للوفد الذي مثل عرب فلسطيـن في « مؤتمر سان جيمس » بلندن واعد مذكرات قيمة عبـر فيها عن الوجهة العربية .

من آثاره القلمية : ولما ايقن انطونيوس ان ريح السياسة الهوجاء تعصف بالحق العربي في فلسطين هجر العمل في حكومة فلسطين وكرس قلمه للدفاع عن القضية العربية عامة والفلسطينية خاصة ووضع في عام ١٩٣٩ كتابا قيما باللغة الانكليزيـة عنوانـه : The Arab Awakening « يقظة العرب » . ويعتبر اهل القلم ورجال السياسة هذا الكتاب من شوامخ المؤلفات التي عالجت القضية العربية معالجة حكيمة رصينة .

وليبلغ انطونيوس القمة في عمله الجبار هذا شـد الرحـال الى الاقطـار العربيـة والاسلامية وقابـل كبار الشخصيات العربية والاجنبية الذين عاشوا احـداث القضية العربية وقرأ العشرات من المراجع والموسوعات .

وعندما ظهر هذا الكتاب النفيس للايدي في عام ١٩٣٩ تصدى لنقله الى العربية السيد حيدر علي الركابي ورأى النور في عام ١٩٤٦ . وفي عام ١٩٦٢ ترجمه الى العربية الدكتور ناصر الدين الاسد والدكتور احسـان عبـاس وتولت طباعته واخراجه دار العلم للملايين في بيـروت وزفته للقارىء العربي في حلة بهية فاخرة .

ووضع انطونيوس دليلا تاريخيا للمسجد الاقصـى والحرم الشريف بالانكليزية والفرنسية لافادة السيـاح وتولى الاستاذ عادل جبر وضع الدليل بالعربية مسترشدا بما وضعـه انطونيـوس .

وفي عام ١٩٤٢ توفي انطونيوس في بيت المقدس مبكيا على وفاته بالعهد المسؤول لامته ودفن في مقبرة صهيون التي آلت الى العدو مع ما آل اليه من وطن مغصـوب ، وشعـب مغلوب ، وحق مصلوب .

٢ ــ القس اسعـد منصور

ولد في بلدة شفا عمرو « بفلسطين » عام ١٨٦٢ وتلقـى مبادىء القراءة والكتابة العربية في مدرسة الارساليـة الانكليزية ثم اصطحبه شقيقاه ليساعدهما في فلاحـة الارض فلبى رغبتهما مكرها وبكى بكاء مرا لتعطشه للعلم وتطلعه الى المعرفة .

وفي ساعات فراغه كان ، في ليالي الشتاء ، ينصرف الى المطالعة وزاده الاوحد نسخة من التوراة واخرى مـن كتاب « الافتيخوس » وسراج ينيره زيت ضئيل !

وفي شفاعمرو كان اسعد يتردد على المبشر خليل زعرب وعلى الكنيسة الانجيلية طمعا بتسهيل تعليمه ومساعدته على دخول « مدرسة الشبان » الانكليزية بالقدس لكـن المبشر وراعي الكنيسة الانجيلية عجزا عن تحقيق امنيته.

وذات يوم غادر أسعد قريته الى احدى قرى نابلـس وهناك لقي تاجرا جوالا يبيع كتبا دينية فكاشفه برغبتـه في الانتساب مجانا لـ « مدرسة الشبان » الانكليزيـة فأشفـق الوراق عليه واصطحبه الى القدس وفيطريقهما اليها طرأ ما حمله على العودة لشفاعمرو .

وفي نهاية ايلول ١٨٨٤ اخذ شاب من آل زعرب يعـد العدة لدخول « مدرسة الشبان » بالقدس فحز في نفس اسعد ان يحرم العلم وهنا توسل بالرجاء والدمع المبشر

زعربا ليزوده بكتاب توصية لرئيس المدرسة لقبوله مجانا نظرا لفقره فزوده المبشر بتوصية ، وفي اليوم المحدد امتطى فرسه وسافر مع الشاب الزعربي الى القدس وبعد ان بلغاها دفع اسعد كتاب التوصية للقس ثيودور ولترس ورجا قبوله طالبا مجانيا ، لكن الرئيس تردد في الامر عندما رآه في زيه القروي وان تعليمه بسيط ، لكن اسعدا الح في الرجاء فأشفق الرئيس عليه وقبله في المدرسة وسرعان ما باع اسعد فرسه وشمر عن ساعد الجد والنشاط ليعوض ما فاته في السنوات التي امضاها فلاحا وثابر على طلب اللحاق بزملائه ، وصرف في « كلية الشبان » اربع سنوات كان خلالها مثلا اعلى للجد والاجتهاد ، وشرع في تعلم الانكليزية التي كان يجهل ابجديتها ، وما زال مكبا على درسها حتى تضلع منها واستطاع بعصاميته ان يكتب ويخطب بها .

ولم يكن اللاهوت مادة رسمية في « كلية الشبان » الانكليزية لكن القس ابراهيم باز كان يدرس التوراة والانجيل وبعض الكتب الدينية ويزود الطلاب بدروس تؤهلهم لان يكونوا اساتذة .

وفي ربيع عام ١٨٨٨ عين اسعد معلما في المدرسة التابعة للارسالية الانكليزية بيافا ، وفي سنة ١٨٩١ رشح للرسامة فعاد الى القدس . وبعد فترة عين واعظا في يافا تحت ادارة القس ولترس . وفي مطلع عام ١٨٩٤ سيم شماسا . وفي عام ١٨٩٩ سيم قسا ، وبقي في يافا يعمل مع القس ولترس الى ان نقل في صيف عام ١٩٠٥ راعيا للطائفة الانجيلية في الناصرة خلفا للقس خليل الجمل فخدم الطائفة تسعا وعشرين سنة نقل بعدها راعيا للطائفة الانجيلية في رام الله .

وبعد ان سكنت نأمة الحرب الكبرى زار بريطانيا فاحتفى به الكثيرون من رجالاتها ومنحته « جمعية المرسلين الكنسية » بلندن لقب (نائب الرئيس) .

لقد تميز القس أسعد منصور بالعصامية والوداعة والشجاعة وشدة البأس والايمان بان الصعوبات التي يواجهها الانسان في مراحل عمره امر لا مفر منه لكن بالايمان يمكن التغلب عليها . لقد تاجر هذا الراعي الواعي بالوزنات التي تسلمها فأفلح وربح اذ ادرك قيمة الوقت فلم يعبث به بل احسن استعماله الى ان حققت الايام امانيه فصار واعظا قديرا وكاتبا بارعا سهل الاسلوب منسجم العبارة وباحثا واسع الاطلاع ، وخلف للخزانة العربية طائفة قيمة من الكتب المفيدة واشرف على تحرير « مجلة الاخبار الكنسية » اربع سنوات فقام بهذه المهمة خير قيام .

وفي ٢٣ نيسان ١٩٤١ توفي هذا المؤرخ الدؤوب ، والخطيب الموهوب ، في مدينة رام‌الله ودفن في المقبرة الانجيلية وقد أوصى بمكتبته الخاصة لمجمع الطائفة الانجيلية الاسقفية العربية وآل القسم الاكبر منها لكلية بيرزيت . ومن آثاره القلمية :

(١) مرشد الطلاب الى جغرافية الكتاب . طبع في عام ١٩٠٥ . (٢) تاريخ جبل تابور او طور التجلي . (٣) تاريخ الناصرة . طبع في عام ١٩٢٤ . (٤) رحلة الى بلاد الانكليز . طبع في عام ١٩٣٠ .

٣ – جريس الخوري أيوب

ولد في كفرياسيف (بفلسطين) عام ١٨٧٤ وتلقى دروسه الاولية في مدرسة قريته وليشبع رغبات نفسه العطشى للعلم التحق بمدرسة صهيون الانكليزية بالقدس فكلية الشباب الانكليزية . وتلقى العربية بفروعها على استاذ الجيل المعلم نخله زريق ، وكانت اسمى امانيه ان يكون (معلما) ، فحققت السماء امنيته هذه وعين استاذا للعربية في مدرسة المطران الانكليزية بالقدس ، وبعد ان اغلقت ابوابها في سني الحرب الكبرى عاد الى قريته كفرياسيف هربا من الخدمة العسكرية .

وعندما وقعت فلسطين فريسة في قبضة الاستعمار البريطاني عام ١٩١٨ عين المترجم له مديرا لثانوية عكا ، وبطلب منه نقل الى القدس في عام ١٩٢٠ وعين استاذا للعربية في المدرسة الرشيدية .

وأخيرا هجر التعليم في المدارس الاميرية وعمل استاذا للعربية في « كلية شمث » الالمانية للبنات بالقدس وظل يؤدي رسالة المعلم الامين الغيور الى ان تقاعد عن العمل .

وفي ١٧ نيسان ١٩٤٣ توفي بالقدس ودفن في مقبرة صهيون ، وفي صدر شبابه نشر الكثير من نفثات قلمه في الصحف والمجلات الفلسطينية وفي طليعتها «النفائس العصرية » و « دار المعلمين » و « الحكمة » . وتميز الفقيد بحفظه القرآن الكريم وديوان المتنبي واشتهر بشعر الهجاء وشعر الدعابة . وهذه نماذج من شعره :

اتمنى لابنتي عقلا سليما   ينبذ الوهم ويهديها السبيلا
آتمنى اللطف فيها يتجلى   لبنات العصر صبحا واصيلا
ذات قلب مفعم طهرا وكبرا   ولسان كاره قال وقيلا
ذات علم وذكاء ونشاط   وخصال صالحات لن تزولا
واذا ضل بنات العصر يوما   وجلبن الهم والخطب الثقيلا
اتمنى ان ترى خير مثال   يتمثلن بها الفعل الجميلا
انما الحسن لها لا آتمنى   اذ حباها الله حسنا لا مثيلا
وحبتها زرقة العين سماء   وحباها الورد لونا لن يحولا
وحباها ثلج (صنين) بياضا   وحباها الرشا العنق الطويلا
وحباها البدر منه طلعة   والشمس شعرا ذهبيا مستطيلا
فاذا ما جاءني يوما جهول   ساحبا في المال والجاه ذيولا
وابتغى مني امرا مستحيلا   لست ارضاه بنعليها بديلا

ومن شعره الفكاهي قوله مداعبا صديقه المرحوم بولس شحاده صاحب جريدة « مرآة الشرق » المقدسية يوم زواجه بالبرقية الشعرية التالية :

عم صباحا يا صاح واعلم باني   لست ان قلت كلمتي بالمداجي
تعب كلها النساء فما   اعجب الا من راغب في الزواج

وعندما عاتبته الاديبة الثقيفة السيدة ماري بولس

(التتمة في صفحة ٣٧)

عمان   البدوي الملثم

بيد مرتجفة يمسك « حمدان » ذيل جاكتته المزقة ويضمها بعنف الى جسمه الهزيل ، ولكن عبثا فالبرد ما زال يخر في عظامه ممعنا في تعذيبه وايلامه . الا من مكان يستطيع الالتجاء اليه في هذه الليلة الباردة .. وتذكر الغرفة التي يسكنها ، فارتعش بعنف .. لا .. لن يذهب ، فهي — الغرفة — والخارج سواء ، بل هنا اقل ايلاما من هناك ، اطفال يتضورون جوعا وتلتحم اجسادهم محاولين جلب بعض الدفء الى اجسامهم الهزيلة ، وام في زاوية الغرفة شبه عارية تذرف الدمع ، لا .. لن يذهب .. وتذكر ولده الصغير ، كيف امسكه من بنطاله قبل ان يخرج وعيناه ترتفعان اليه برجاء ، صائحابه:

— ابي ، احضر لنا خبزا ولحما يا ابي .

اجابه وهو يدير وجهه بعيدا :

— حاضر يا بني .

وتلقفته الطرقات منذ الصباح وبدأ جولته المعتادة بالبحث عن عمل ،والجواب واحد منذ سنة كاملة .. لا .. لا يوجد عمل ، واضطر لان يمد يده ، ولكن الناس لا يرحمون ... « انت رجل .. ابحث لك عن عمل » .

رغيف خبز لم يستطع الحصول عليه منذ الصباح ، كيف يعود الى البيت خالي الوفاض ؟ كيف يستطيع سماع بكاء اطفال صغار ؟ اي قلب لا يتفتت حزنا ازاء نظرات تنطق بالبؤس والشقاء .. لا .. لن يعود .. سينام على الرصيف ان استطاع النوم .

سار يتمهل في الشارع المظلم الى ان وجد زاوية فيه اكثر ظلاما من نفسه فوضع جسده فيها ، ملقيا ظهره الى الحائط ودافعا فخذيه في بطنه ... اغمض عينيه محاولا النوم ولكن انى له ذلك ... بطنه خاوية منذ يومين ، وجسمه يرتعش بردا ، فتح عينيه ثانية وامتدت يده الى جيب جاكتته البالي بحثا عن نصف سيجارة كان قد وضعها منذ الصباح ، وبعد برهة خرجت يده تحمل عيدانا صفراء اللون صغيرة ، ولكن اين الورقة التي تغلفها ؟ وبنظرات زائغة اخذ ينظر الى الرصيف عله يجد ورقة يلف فيها ما اخرجه من تبغ ،فوقعت عينه على عقب سيجارة طويل نسبيا، فكر « لا بد ان صاحبها غني والا ما رماها وهي بهذا الطول » .

وضع كفه على الارض وتحامل على يده لينهض ، سار بضع خطوات ثم انحنى ملتقطا عقب السيجارة باشمئزاز ، زخر بعنف مرددا في نفسه « لعنت من زمان اغني فيه ملتقطا عقب سيجارة » .

اخرج « القداحة » من جيبه

الكل نيام

بقلم قاسم جودة

وبصعوبة اشعل عقب سيجارته ، اخذ نفسا عميقا فشعر ببعض النشوة ، امتدت يده ثانية الى فمه ليأخذ نفسا اخر ، ولكن فجأة وقعت عيناه على منظر جعلت يده تجمد في مكانها قبل ان تصل الى فمه ،احس بجسمه يضعف فجأة ويتهاوى على الارض ، ولكن يده امتدت الى بناء قريب فمنع جسمه من الاستمرار في السقوط .

ردد بعنف واسنانه تصطك « يجب ان اقتله .. انه سبب ما وصلت اليه من بلاء » . وتمنى لو كان معه مسدس ، لكان يمسكه بيمناه ويضغط على الزناد قائلا « للسيد عبد المجيد » ببساطة : « انا اكرهك لانك سبب بلائي ولهذا تستحق الموت » . طبعا سيسترحمه «عبد المجيد» لكنه لن يأبه له ... سيمتع نظره وهو يراه مرتجف الاوصال زائغ النظرات .. يريد ان يعذبه قبل ان يموت .. طبعا لن ينسى ان يبصق في وجهه قبل وبعد موته .. وازعجه صوته وهو يقول بصوت مسموع « آه .. لو كان معي مسدس ؟»

اخيرا استبعد فكرة القتل ، فهو اولا لا يملك اية اداة يستطيع بها تنفيذ ما يريد ، ثم لو كان لديه ما يريد فهو لن يستطيع القتل ... لن يستطيع القتل ، لم لا يسرقه .. ؟ سار خطوة واحدة ثم وقف ... عاودته فكرة السرقة ، ايسرق وهو الذي لم تمتد يده الى شيء محرم في حياته ؟. واخيرا اقنع نفسه بأن ما سيقوم به ليس سرقة بل استرداد ماله الذي سرق ، فهو لم ينس ما فعله به عبد المجيد ، قبل سنوات ست طرد من الشركة التي يعمل بها بحجة تضاؤل الانتاج لقلة الطلب ، فذهب الى صديق له ليعينه في ايجاد عمل ، وهكذا تعرف « بعبد المجيد » الذي اقرضه ثلاثمئة دينار لمدة خمس سنوات على ان يتقاضاها خمسمائة ، واتى الموعد المحدد فلم يستطع «حمدان» الا سداد الثلاثمائة دينار . وهكذا حجز « عبد المجيد » على دكانه الصغير وباعه بالمزاد العلني حتى استوفى دينه مع الفائض ، ومنذ ذلك اليوم استقبلته الطرقات مشردا جديدا انضم الى زمرة المشردين .

وبعد هذا أيعد سارقا ان قام باسترداد حقه ..؟ ان كان قانون الارض يعتبره سارقا فالسماء لن تعتبره كذلك .. « بالطبع لن تعتبره كذلك » هكذا فكر ، وهو لا يريد قانون الارض ... يريد السماء .. يريد السماء .



لا يدري اي قوة وتصميم هائل اتاه في تلك اللحظة فاخترق الشارع الى البيت الذي كان يحدق فيه النظر ... تلفت حوله بحذر وهدوء .. لا احد .. الكل نيام ... السور مرتفع بعض الشيء لكن لا يهم .

بعد لحظات كان يسير في الممر المحفوف بالاشجار داخل السور .. وبحث بعينين حمراوين عن نافذة مفتوحة يدخل منها الى البيت ، واخيرا وجدها ، نافذة لا تعلو كثيرا عن الارض ، وببساطة تسلقها وبهدوء قفز داخل البيت ... اجال عينيه في المكان ليتبينه فتأكد انه المطبخ ، توجه الى الباب بهدوء وسكون واتجه الى الغرفة التي ينام فيها « عبد المجيد » حيث يضع نقوده .... لن يستيقظ « عبد المجيد » بسهولة فهو مصاب بالارق ولا ينام الا بعد ان يأخذ اقراصا منومة ... ولكن يجب الحذر فربما يكون قد كف عن هذه العادة ... قال بصوت منخفض « الحمد لله » فقد فتح الخزانة دون صوت ... وامتدت يده الى الداخل وبدأ يبحث ... اخيرا اصطدمت يده بكتلة صلبة نسبيا فتحسسها على ضوء المصباح الداخل من الشباك .. دنانير .. دنانير .. دنانير تنوف على الالف ... وضعها في جيبه وهم بالخروج ، ولكن قدمه تسمرت في الارض .. وفكر بعنف « انني لص » . اخرج اللفة من جيبه ثانية ونظر اليها نظرات تائهة .. مجنونة .. لهفي ..هل يتركها هنا؟ ايخرج دونها ؟ ولكن اطفاله .. ايدعهم يموتون ؟ كلا .. لن يكون هذا ، فكر برهة « لن آخذ النقود كلها .. يكفيني ان استرد ما سرقه مني .. وبسرعة كبيرة عد عشرين ورقة زرقاء أودعها في جيبه ثم اعاد اللفة الى مكانها واغلق الخزانة واتجه الى الباب .. قبل ان يترك الغرفة نظر الى سرير « عبد المجيد » كان يغط في نوم عميق .

سار في الممر وقلبه يرقص فرحا، وقبل ان يتسلق السور وقف برهة حتى يسترد انفاسه ... تنفس بعمق «سيأكل الاولاد لحما بعد ستة شهور كاملة ... سيرتدون الملابس بعد عري .. سوف .. سوف .. » .

واستعجل لقاء اطفاله فقفز عن السور الى رصيف الشارع دون ان ينظر حوله ... وما كان يسير خطوة واحدة حتى سمع صوتا قويا يقول :

ــ قف .. من انت ..؟.

وبنظرة عجلى تلفت حوله .. ارتجف بعنف .. رجل يلبس السواد .. انه شرطي .. هل يقف ؟ السجن بانتظاره ، ثم نقوده .. سوف يسرقونها ثانية .. « لن يأكل الاطفال لحما .. لن يرتدوا ثيابا جديدة . لن يقف .. ما زال سائرا ولكن بخطوات اسرع ... وسمع الصوت يقول ثانية : قف .. .

خطوات ثقيلة تقترب منه ...

يجب ان يركض ... وترك لساقيه العنان . انقضت لحظة قصيرة قبل ان يسمع صوت ثلاث طلقات متتابعة وصوت انين مكتوم ... واطلت الرؤوس من النوافذ .. ودار همس بين الجيران .. وبعد برهة اتاهم الخبر اليقين « لص سرق السيد عبد المجيد » .

وعادت الشبابيك تغلق من جديد ، واطفئت الانوار ، وعاد الى الشارع ظلامه وسكونه .

طولكرم ــ الاردن **قاسم جودة**

في زوارق الرجال

« الى عبد الحسين .. صياد في الناصرية »

*

لياليـنا هـوى سكـران .. ينسـج حولهـا القمر ..
ضبابا متعـب الانفــاس .. جرح صـدره السهـر
وأثقلـه الاسـى بالموت .. ليـت المـوت يطوينـا
فخـذ يـا ليـل مـا أعطيـت .. ما نملـك يكفينـا
بقايـا مـن زوارق .. مـن شبـاك ..
من رجال .. خطط الزمن ، على جبهاتنـا ألمـا
وجرعنـا كؤوس المـوت والسقمـا
ومـد يـدا مثلجـة لنـا وفمـا
فصحنـا آه يرهقنـا .. ولكن ليـس ينهينـا
فخـذ يا ليـل ما اعطيت .. ما نملك يكفينـا

أتانـا موسـم الخيرات ، مـات الفقـر والسغـب
أتاتـانـا كنـت أرتقـب
وهلهلـت الحناجـر .. صفق البردي والقصـب
ستهـرع كـل قريتنـا .. ستاكل وجـادت السحـب
سيوقـد ذلـك التنـور .. مـا أغنـى به حطـب
سنتعـب مـاء هـذا الهـور .. ندفن فيـه ماضينـا
وما تركـت ليالـي الضيـق .. ما اقسـى ليالينـا
أعـدي الـزورق المتـروك ، حمديـه
وغنينـا .. فكـل العمـر أغنيـه
سـرت لـم نـدر ما فيهـا .. ولـم نـدر
بـأن عيـون مـن ولـدوا .. أسـى تجـري

بغداد عبد **المحسن اطميش**



محمود سعيد

محمود سعيد رائد الفن التشكيلي

بقلم نقولا يوسف

* * *

على ربوة بحي « جناكليس » في رمل الاسكندرية ، وفي طريق هادىء عتيق ، غير بعيد عن جلبة المدينة العظمى (شارع محمد سعيد باشا) ما زالت تعتكف صومعة الفنان السكندري الراحل ، منطوية على ذكرياتها الاثرية ، وذخائرها الفنية ..

والباب الخارجي العريض مفتوح على مصراعيه ، تجتازه الى حديقة عجوز تتقدم القصر الصامت ..ودليل كهل يقودك من غرفة الى طرقة ، ومن دهليز الى ردهة .. والمقاعد القديمة في مكانها خالية تطوي صروف السنين واحداث العصر .. واللوحات الكبيرة تحجب الجدران ، والتماثيل الصغيرة تربض في الاركان ، صور تجوب بك وادي النيل من البحر الى مشارف السودان ، وتتنقل بك بين اسبانيا وايطاليا ولبنان ، وبين فرنسا وقبرص ويونان !. وتطالعك وجوه الوالد والزوجة والابنة والاصدقاء ، وتتزاحم في القاعات عشرات اللوحات المعروضة ، وتختزن عشرات اخرى حجرة فسيحة تحجبها عن الانظار ، عاشت طويلا تترقب خروجها الى الاضواء ..

ها هنا المسكن ، والمرسم ، والمتحف . حيث عاش وعمل طويلا رائد التصوير التشكيلي ، واحد اركان الفن الرواسخ محمود سعيد . والقصر الذي بارحه الى ربه والده محمد سعيد عام ١٩٢٨ ، وشاءت امه ان تموت فيه بين ذكرياتها ، ولم تدعه يستبدل به شقة تلائم معاشه الشهري الذي لا يملك غيره ، فلما ان حان يومها عام ١٩٦١ ، ود ان يموت فيه مثلها ، ولحق بها يوم عيد ميلاده في ٨ من ابريل ١٩٦٤ ، شيخا في السابعة والستين ، اثقلته حمولة من تجارب الايام ، ومشاهد الاقطار ، ووفرة الثمار ، ومشاق الوظائف ، ونوبات المرض ..

وهناك في غرفة تزينها لوحات الفنان ، وتطل شرفتها الفسيحة على حديقة خلفية صغيرة ، كان محمود سعيد جالسا يترقب .. لم تنل السنون كثيرا من وسامته وحيويته .. وما كنت احسب انها جلسة الوداع فلما جئنا بعدها الى تلك الحجرة ، كان شخصه قد غاب عنها الى الابد ، وبقيت روحه تسامر جموع المعزين .. وكأنما جاءت من وراء هذه المقابر التي صورها يوما في لوحة حزينة ، وكأنما تجسد المقرىء المرتل آي الذكر الحكيم في الصورة الاخرى التي ابدعها عام ١٩٦٠ .

كان يومذاك يعاني اكثر من علة نغصت عليه سنيه الاخيرة ، من ربو في الصدر ، والام في الساق ..ولكنه كان صابرا متجلدا، محتفظا بهدوئه وبشاشته ، يحدثك في افاضة وفي حياء عن ماضيه وحاضره ، وعن الفن ومذاهبه ومدارسه .. وكان بعد ذلك يتنقل في خفة بين الغرف والقاعات ، ليشرح ويفسر بعض المعروض من لوحاته .. والحق ان سجل حياته كان معرضا غنيا بروائع الاثار والذكريات ..

وقد يخطر لك ان تعد اوجه الشبه بين عبقري التصوير محمود سعيد ، وبين سميه نابغة القصة محمود تيمور .. فهما فنانان متقاربان في السن والسمات ، والمواهب والطباع ، ترتسم على وجه كليهما السمح اشراقة الوداعة والبراءة .. وقد نشأ كل منهما في بيت ارستقراطي ، وكان ابنا لباشا كبير ، ولكنه نزل الى الساحات الشعبية ، وشارك الجماهير حياتها . وحمل معها اعباءها ، وصور الاول كفاحها بريشته في مئات اللوحات الخالدة ، والثاني بقلمه في مئات القصص البارعة .. لم يعرف احدهما الحرمان المادي ، ولكنه عرف الالم والشوق ومحبة الناس ..

ويروي لك محمود سعيد قصة مولده في الحي الشعبي، بشارع ابي العباس المرسي من صميم الاسكندرية ، يوم ٨ من ابريل عام ١٨٩٧ ، ونشأ في حي « الانفوشي » بجوار البحر ، وصخب الموج ، وقوارب الصيادين ، وفي ظل مساجد الاولياء واضرحة الصوفيين ، ووسط مواكب العمال وبنات بحري والملاحين ــ البيئة التي صور انطباعاتها في الكثير من لوحاته ــ مثل : « الصيد العجيب » (لوحة عن صيادي السمك معروضة في السفارة العربية المصرية بواشنطن) و « صيادين في شاطىء السلسلة » و « صيد في زوبعة على الكورنيش »

و « بائع العرقسوس » و « الدراويش » ، و « جميلات بحري » و « حلقة الذكر » و « العودة من الصيد » و « المسجد الابيض بكوم الدكة » و «تصميم السابحات» . . وامثالها من السكندريات . . .

وهو في تنقله بين ضواحي الاسكندرية ، يستلهم الصور الطبيعية في « مرسى مطروح » ، ومريوط ، والعلمين ، ما بين البحر والصحراء ، ويعرضها في اكثر من عشر لوحات اخرى . وتدل مجموعته السكندرية التي تشمل اكثر من ٢٥ لوحة ، من مختلف قطاعات المدينة ، والتي رسمها فيما بين شبابه وشيخوخته على ان سحر بلدته ظل مهيمنا عليه الى النهاية . .

ثم يقص عليك كيف الحقه ابوه مذ كان طفلا في السابعة « بكلية فكتوريا » (كلية النصر الحالية برمل الاسكندرية) كما كان يفعل الخاصة يومذاك . . فظل بها فيما بين ١٩٠٤ — ١٩٠٨ . . ثم بمدرسة اليسوعيين ليمكث بها ستة اشهر . . وكيف وضح لابيه ان تلك المدارس لم تعلن في ذلك العهد بالمناهج الوطنية — وبخاصة الدروس العربية والاسلامية — فأخرجه منها ليتثقف بالمنزل على يد معلمين مختارين ، كان يذكر منهم بالفضل المرحومين الاستاذ الشيخ محمد الخضري وكان يعلمه التاريخ الاسلامي واللغة ، والاستاذ احمد امين يدرس له الترجمة ، وتوفيق افندي يعلمه مبادىء الرسم الى جانب من كان يعلمه الفرنسية والانجليزية . .

وتقدم الصبي من بيته الى امتحان « الشهادة الابتدائية» عام ١٩١١ ، ثم الى « شهادة الكفاءة » في العام التالي ، فنجح فيهما بتفوق . . والتحق بالمدرسة السعيدية الثانوية بالقاهرة ، ثم بالمدرسة العباسية بالاسكندرية ، وحاز الشهادة الثانوية (البكالوريا) من قسم الاداب عام ١٩١٥ وكان ترتيبه الثاني بين الناجحين . . ثم دخل « مدرسة الحقوق الفرنسية » ونال منها عام ١٩١٩ « ليسانس القانون » . . ونزل الى معترك الحياة يتدرب على المحاماة بمكتب محام بالقاهرة ، واخر بالاسكندرية . .

ومع ذلك فقد ولد فنانا وكان الرسم هوايته المفضلة منذ صباه . . فكان ينقل عن الطبيعة حوله اينما سار . . وهو فيما بين ١٩١٢ — ١٩١٤ يتلقى دروسا في الرسم على يد الفنانة الايطالية « كازاناتو دافورو » التي جاءت الى مصر بعد تخرجها في اكاديمية فلورنسة ، واستوطنت الاسكندرية حيث شاركت بلوحاتها في بعض معارضها الخاصة ومعارض القاهرة العامة ، ثم عادت في شيخوختها الى بلدتها قرب « فينيسيا » . .

وكان هذا النهج من الدراسة الثانوية والقانونية الذي اراده له ابوه رئيس الوزراء ، ما باعد بينه وبين التفكير في الالتحاق بأحدى كليات الفنون ، وكانت « مدرسة الفنون الجميلة » بدرب الجماميز بالقاهرة قد فتحت ابوابها عام ١٩٠٨ لذوي المواهب الفنية من الطلاب ، لتلقي دروس النحت والتصوير والمعمار ، على ايدي بعض الاساتذة من الفنانين الاوروبيين ، ومنهم : لا بلان ، وكولون ، وبيرون ، وفورتشيلا . . وتخرج فيها خلال عشرين عاما عدد كبير من المشتغلين بالفنون والمدرسون بالمعاهد قبل تطويرها عام ١٩٢٧ الى مدرسة عليا للفنون بالقاهرة ، وكان من خريجيها الاوائل : محمود مختار ، وراغب عياد ، ويوسف كامل ، ومحمد حسن ، واحمد صبري . . وقد ظهرت بواكير اعمالهم في اول معرض لهم بالقاهرة عام ١٩١٢ .

وهناك في الاسكندرية فيما بين ١٩١٦ — ١٩١٨ كان الطالب محمود سعيد وعدد من هواة التصوير بهذه المدينة (كان منهم شقيقه المهندس حسين سعيد ، وابن عمته الشاعر السكندري احمد راسم ، وشريف صبري ، والقاضي هيربروس ، والفنان سباستي) يترددون على مرسم الفنان ارتورو زانييري في احدى عمارات الاسكندرية ، حتى قضت ظروف بأن يغلق هذا المرسم بعد ثلاث سنوات . . وكان محمود سعيد في تلك الفترة يحاكي استاذه زانييري في اسلوبه ، وما لبث ان استقل عنه مستلهما طبيعته وبيئته ، ثم مؤثرات العالم الفسيح الذي راح يطوف بارجائه ، وهو في ذلك لم يشذ عن فناني الدنيا ، حيث تلتقي الموروثات والمكتسبات ، ويمتزج القديم والجديد،ويتوالد من هذا كله المستحدث والمبتكر.

ومنذ فجر شبابه ، كان يرتحل الى صعيد مصر ، ويتنقل بين الاقصر واسوان والنوبة وشواطىء البحر الاحمر تارة بمفرده ، واخرى عضوا في لجان الاثار . . وهناك كان يدرس المعابد والنقوش والاعمدة والتماثيل ، ومن وحي تلك البقاع السحرية خرجت لوحاته على توالي السنين ، ومن ذلك : « الاقصر قرب وادي الملوك » و « صخور اسوان » و « جزيرة الفنتين » و « اسوان جزر وتلال » و « النيل عند بني حسن » و « عند جزيرة فيلة » و « الاسيوطية الصغيرة » وغيرها . . كما استوحى لوحات من « محجر التلك بجماطه » على البحر الاحمر ، ومناجم الفوسفات في القصير . .

ومن رايه : ان معبدي « الدير البحري » في طيبه ، و « بو سمبل » في النوبة ، وضعا في مكانهما الطبيعي الفريد، وانهما من قمم الفن المعماري الذي احتفظ بروعته وقيمته طوال العصور . . .

ومثل شجرة باسقة مثمرة ، ينمو محمود سعيد مشدودا الى تربة بلاده وجوها وهو الفنان العربي المصري والسكندري العصري ، الذي تبلورت في اعماقه العوامل الروحية والمادية ، تراث العصور الذي ثبت منه الفن في ارض الشرق وتفرع . .

ويرى محمود سعيد ، وقد بلغ الثالثة والعشرين ، ان يستزيد في الغرب من ثقافته الفنية ، فسافر الى باريس عام ١٩٢٠ وهناك التحق بالمرسم الذي اطلق عليه صاحبه

المثال « انطوان بورديل » اسم : « ليجراند شومييــــر » اي الكوخ الكبير ، وهناك كان يقضي مساءه مع زمـلاء مكبين على رسم انموذج بشري (موديل) .. واما صباحه فكان يمضيه في المتاحف والمعـارض ، وبخاصة فـي متحـف اللوفــر ..

وما لبث ان اعرض عن «ذلك المرسم ، والتحق بمعهد يسمى « اكاديمي جوليان » حيث زامل الفنـان ب.ا. لونس .. ثم لم ترقه طريقة هذا المعهد ، فتركه بعد شهر واحد.. وكان قد تنقل بين اثار باريس مدة ستة اشهر.. وحل يوم عابس بارد مطير ، وقد انفرد فناننا في غرفته الشحيحة الضوء ، فأحس بحنين جارف الى شمـس بلاده الضاحية وسمائها الصافية حيث تتلألأ الالوان فـي الحقل والبحر والصحراء .. وهب بغتة ليرحل على اول باخرة تعود به الى وطنه ..

ولكنه عاد موقنا بأن في عالم الله الوسيع صورا للجمال طبيعية ومصنوعة لا ينفرد بها مكان دون الاخر ، وللفنان ان يسعى وراءها حيثما وجدت .. فتهيأ لرحلات اخـرى في الشرق والغرب كلما سنحت له الفرصة ..

عاد محمود سعيد الى الاسكندرية ، واختار شريكـة حياته التي عاش معها بقية العمر .. ورأى قبل ان يصبح رب اسرة ان يجد العمل الذي يكفل لها العيش ، ولـم يكن التصوير موردا للرزق . فقبل الوظيفة التي هيأتهـا له دراسته القانونية . ودخل في سلك القضاء ، وعيـن عام ١٩٢٢ مساعدا في نيابة المحاكم المختلطة بالمنصورة . ثم رقي فيما بعد رئيسا للنيابة في محاكم المنصــورة والاسكندرية والقاهرة .. فقاضيا ، فمستشارا بمحكمة استئناف الاسكندرية المختلطة وهي اخر وظائفه القانونية التي استعفى منها عام ١٩٤٧ .. وقد عرف في قضائـه بالعـدل والحكمـة ..

غير انه كان فنانا طليقا يحس ، وقـد تقسم بيـن مسئوليات الوظيفة ، ومسئوليات الاسرة ، انه يتوغـل يوما بعد يوم في رمال لينة تحت قدميه ولا يستطيـع الانطلاق في قضاء الفن .. فكان اذا حلت العطلة الصيفية ، واغلقت ابواب المحاكم ، عبر البحر وضرب في الافاق.. فزار في سني الشباب والشيخوخة : ايطاليا واسبانيا ، والنمسا والمانيا ، وهولنده وبلجيكا ، وسويسره ولبنان ، وقبرص ويونان ، متأملا اعمال عمالقة الفنون في المتاحف والمعارض والقصور ، ومصورا مناظر الطبيعة في البحـار والجبال والسهول ، وفي القرى والمدن والجـــزر .. ويقول : « .. واما ليونارد فنشي فكنت احبه دائما ، واما انجلو فكنت احس امامه بالخشوع .. » وكان يستهويـه ايضا فن روبنز وبلليني ورمبراندت ثم كان دائما ابدا عابدا لجمال الطبيعة في مختلف اوضاعها ، حية وجامدة ..

وفي الكتيب الذي نشره الفنان الناقد بدر الدين ابو غازي ، عن محمود سعيد عام ١٩٦٠ وزينه بعدد مـن نماذج لوحاته يقول « انه كان اكثر ميلا الى فان ايـك ، ومملنج ، وفان دير . فاقترب منهم ، وعمل على ايديهم مر فنه بمرحلة تحول واضح . ومن خلال اعمالهم ادرك معنى تماسك التكوين والعمق والتوازن بين البناء والغناء في العمل الفني .. وعرف من خلالها كيف يضحي بالتفاصيل لهؤلاء الاساتذة . وانما هو استفاد لفنه من صياغة فنهم . وعاد فناننا مصريا يقدم صورة لمصر من خلال مضمون اعماله واسلوبه بعـد ان طاف باتجاهات المدارس المعاصرة التي كانت تزحـف على ميادين الفن خلال فترة تكوينه . ولقد وجد هــذه الاتجاهات بعيدة عن ان تتجاوب مع نفسه وفطرته الفنية . واستوقفته النزعة التأثرية لحظة فأخرج بعض اعماله على غرارها غير انه لم يلبث ان هجرها ... »

وكان محمود سعيد خلال السنـوات ١٩٢١ ــ ١٩٢٦ مهتما بتصوير الاشخاص ، وبعض المناظر الطبيعيـة ، والموضوعات الميثولوجية ولم تزل في نفسه بعض الانطباعات من بلليني والايطاليين الاول ، حتى استقل بأسلوبـه الخاص ، وشخصيته الفنية في السنوات العشر التـي تلتها . وفي ذلك الطريق الذي اختطه لنفسه ، ســار قدمـا بقيـة حياتـه ..

وعاد فناننا الى مدينة المنصورة عام ١٩٢٧ قاضيا في محكمتها المختلطة ولم تكن هذه البلدة الجميلة غريبة لديه، اذ جاء اليها عام ١٩٢٢ مساعدا في نيابتها المختلطــة ، فرئيسا لهذه النيابة .. فكان ينطلق ايام العطلة الـى اطراف المدينة وعلى ضفاف نيلها ، ليصور اللوحات التـي رأينا منها فيما بعد : « حمام الخيل بالمنصورة » و «المؤذن في المنصورة » و « الجزيرة السعيدة » و « ذات الرداء الازرق » .. وغيرها ..

والقطار فيما بين المنصورة والاسكندرية يحمل فناننا مرة او اكثر في كل شهر وسط الريف حقوله وقـراه ، وزرعه وسواقيه ، وفلاحاته وفلاحيه وتشده هذه الصور الى قلب بلاده النابض :، وتصبح حياة الشعب شغلـه الشاغل ، وابن الشعب وكفاحه اهم اعماله ، فاذا كان في المنصورة خرج الى ريفها وعبر النيل الى حقول طلخـا ، واذا عاد الى الاسكندرية فهناك الصيادون وقواربهـم ، والملاحون واحيائهم ، و « اولاد البلد » وكفاحهم ..

ومنذ عام ١٩١٩ بدأت المعارض الباكرة للفنون ، تثيـر اهتمام الكتاب والصحافة العربية .. ورأينا مي زيـادة تكتب عن « معرض الصور المصري » ، والمازني يكتب عن « معرض الفنون عام ١٩٢٢ » ، ومحمـد حسين هيكـل ينقد معرض « جماعة الخيال » عام ١٩٢٧ .. ويـزداد انتاج محمود سعيد كما وكيفا منذ عام ١٩٢١ ، ويـرى الناس مما ابدعته ريشته في شتى المعارض فيما بيــن ١٩٢١ ــ ١٩٥٠ نحو ١٤٠ لوحة ممتازة ..

وكان قد اقيم بالقاهرة عام ١٩٢٧ معرض « جماعـة الخيال » التي انشأها المثال محمود مختار ، وعدد مــن

الفنانين العرب والاجانب المقيمين .. وكانت النزعة القومية في الفن والادب تساير وتتذاك الحركة الوطنية الداعية الى الاستقلال ومكافحة الاستعمار ، واستلهام الفن المصري القديم ، والفنون الشعبية لتوكيد الشخصية القومية والابقاء على تراثها ، واندمج الفنانون جميعا في هذه الحركة .. وفي ذلك المعرض كان لمحمود سعيد لوحات تمثل السمات الشعبية ، كما كان بينها لوحة مستوحاة من الاسطورة العالمية المشهورة عن « صراع مار جرجس والتنين » (١٧ ديسمبر ١٩٢٧) وقال انها اثارت عنده ذكرى قديمة عزيزة على المصريين جميعا هي صور الزير سالم ، وابو زيد الهلالي واساطيرهما متصلة في النفس المصرية بتاريخ مصر القديم الى حد كبير .. قال : « ولكني لما رأيت هذا الغول (التنين) في صورة غير اغوالنا الشرقية الكثيرة الصور ، لم ينقص اعجابي بمقدرة محمود سعيد وقوته .. وبحسب هذه الصورة ان يكون لها من الفضل ان تبعث في نفوسنا رجاء جديدا يحققه معرض جماعة الخيال في العام القادم ... » ثم اضاف انه تحدث عن ذلك الى المثال محمود مختار – اي في بعث فنوننا الشعبية وتسجيل اساطيرنا الشرقية .. وعاش الكاتب ليرى في لوحات محمود سعيد – وقد نيفت في اواخر حياته على ٥٠٠ لوحة – الكثير من اساطيرنا وتقاليدنا وتراثنا الى جانب الالهامات العالمية التي تتقاسمها الانسانية جمعاء ..

وهناك على شواطىء الاسكندرية حيث ولد ونشأ من الفنانين المحدثين : محمود سعيد ، ومحمد ناجي ، وادهم وسيف وائلي ، ومحمود موسى ... وغيرهم .. وحيث قام « مرسم زانييري » فترة ، و « جماعة الاتيليه » زمنا ، بدات بذور الوعي الفني تنمو وتتفرع .. وفي ذلك العام (١٩٢٧) افتتح حسن كامل مدرسة مسائية اهلية للفنون ، يتدرب فيها هواة الفن على التصوير والنحت والمعمار ، وبداوا باقامة معرض سكندري عام ١٩٢٨ ثم افتتحت هذه المدرسة في يوليه ١٩٢٩ ودعي الى معاونتها عدد من الفنانين على راسهم محمود سعيد الذي تطوع الى توجيه طلبتها ..

ثم اقيم بالاسكندرية في مايو ١٩٣١ معرض عام للفنون اشترك في معروضاته عدد من كبار فناني الثغر وناشئته ، وعرض محمود سعيد هناك لوحته : « دكتور حماده » كما عرض مختار تمثال « الفلاحة والجرة » ..

ولم يعد محمود سعيد يتقيد بالنهج « التأثري » كما فعل قبل ١٩٢١ ، او يقتصر على تصوير الاشخاص في مواقف ثابتة (كما في لوحاته الكبيرة عن والده وزوجته وشقيقته واصدقائه ...) او مناظر الطبيعة الصامتة – في الاعوام ١٩٢١ – ١٩٢٦ – ولم يلبث ان اهتدى الى اسلوبه الخاص في السنوات العشر التالية (١٩٢٧ – ١٩٣٧) وتوالت شوامخه التشكيلية في عشرات من اللوحات ، ومن ذلك : الجزيرة السعيدة ، و حياة ، وذات الرداء الازرق (١٩٢٧) ، والدراويش (١٩٢٨) وليلة الدفن ، وذات الرداء الوردي (١٩٢٩) ، وحاملة القلل ، وتحليل نفسي (وهي تمثل الفنان في حالة المرض) ١٩٣٠ وبائع العرقسوس ، و الامومة (١٩٣١) و الدعوة الى السفر ، و ذو الصديري الاخضر (١٩٣٢) و عارية والسابحات ، وفاطمة ، وذات الجدائل الذهبية ، ونادية ، ونائمة (١٩٣٣) والشواديف ، والصلاة ، وشراع على النيل ، وكوبري الدلنجات (١٩٣٤) وبنات بحري ، وزوبعة على الكورنيش ، وجارية على ارضية حمراء (١٩٣٥) وذات الهفهاف الاسود ، وحلقة الذكر ، والراقصة ، وعقد المرجان ، واحمد مظلوم (١٩٣٦) والقط الابيض ، والمدينة ، وذات الاساور الحمراء (١٩٣٧) الخ ...

وفي الثلاثينيات اثار فن محمود سعيد اهتمام الفنانين والنقاد ، وراح بعضهم ينوه في الصحف عن رايه ، فكتب المصور المرحوم سند بسطا (١٩٠٨ – ١٩٦٤) بجريدة الاهرام عام ١٩٣٣ يقول : « ... اذا تكلمت عن الفنانين المصريين ، فانما ابدا بزعيم النهضة في هذا المعرض وهو الاستاذ محمود سعيد انني لم احظ بمعرفته بعد ، ولكنني شديد الاعجاب بفنه ، ويشاركني في هذا الاعجاب اصدقائي من الفنانين الاجانب .. ففنه دائم التطور والتقدم . بل اعتقد انه اقوى مصورينا . يعجبني فيه قوة الابتكار ، وبعد صوره عن الابتذال والتقليد . فهو قدير في اظهار نفسية من يصورهم ، وما احتوت عليه نفوسهم من طباع وشهوات ... »

وفي عام ١٩٣٦ نشرت « المجلة الجديدة » التي كان يصدرها المرحوم سلامه موسى ملحقا بعدد يوليه من تلك السنة به بحث مسهب عن فن محمود سعيد ونماذج من لوحاته . ومما جاء به من اراء الناقد الفنان الذي لم يوقع المقال :

« ان تصوير محمود سعيد يستمد مصريته من صفاء الجو وشفافية الالوان ، ومن عظمة الكائنات السليمة التي لا يحجبها عن العين غبار او ضباب ، ومن ذلك اللون الخمري الذي يستمد خمريته من الطمي – ذلك اللون الذي ينعكس على العين من ضياء قطع الارض الصغيرة المغمورة بالمياه ، ومن ارتعاش اشعة النور الفوسفورية ، ومن تلك الاشعة الوضاءة المقرونة بالالوان القاتمة التي نعثر عليها دائما في حواري مصر ... ان هذه الالوان هي عينها التي تعلو وجوه النساء الوطنيات اللاتي يتصدى سعيد لرسمهن ، وهي نفس الالوان التي تتمثل في تجاعيد شعورهن وعلى اهاب اذرعهن ... وتنبعث من جميع لوحات محمود سعيد عظمة ووقار كبيران ... فكأن جميع نماذجه تكتم في صدرها خواطر رصينة تحدرت عليها من اجيال عديدة ، سبقت جميع صوره مفعمة بوقار شامل

وروح مؤثرة ... وظلت صوره مصبوبة في قوالب الفن النموذجي الذي يئس المصورون من الوصول اليه او اللحاق به . ذلك لانه من اول عهده بالتصوير قد حافظ على مبالغته في دقة الرسم كما يحافظ العابد على عبادته ... وانه لم يظهر الجراة في فنه الا بعد حياة مدرسية طويلة ... »

وخرج محمود سعيد الى المجال العالمي منذ عام ١٩٣٧ ، فأقيم له في تلك السنة معرضان في نيويورك الاول بنادي المهندسين المعماريين لمركز روكفلر ، والثاني في « ستديو جيلد » .. وفي العام نفسه اشترك سعيد في « المعرض الدولي للفنون والزخارف بباريس » ، ونال منه « وسام الشرف » . وكان بذلك المعرض بناء خاص بالفن المصري ، وطلب من محمود سعيد ومحمد ناجي بعض لوحاتهما .

وفي العام التالي ١٩٣٨ اشترك سعيد في « بينالي فينيسيا » مع فناني ١٨ دولة وهناك عرض لوحته السكندرية المشهورة « بنات بحري » .

وفي مارس ١٩٤٢ اقامت له « جماعة الاتيليه بالاسكندرية » اول معرض شامل لاعماله ، كما اقامت له « جماعة الصداقة الفرنسية » عام ١٩٤٥ معرضا خاصا ..

وكانت تلك الفترة فيما بين ١٩٣٧ – ١٩٤٧ مرحلة اخرى انتقل فيها الفنان من الرمز الى التعبير المباشر ، واستقر اتجاهه في الاسلوب والموضوع ، وظل يسود فنه ايضا الاهتمام بتصوير الطبيعة والاشخاص .. وخرجت في تلك الاعوام لوحاته : الزار ، الصيادون في رشيد ، شيخ يصلي ، خليج السلوم ، مرسى مطروح ، قناة السويس ، ذات الحلق اللؤلؤي ، الاسبوطية الصفوة ، قبرص بعد العاصفة الخ ..

واخيرا لم يستطع الفنان ان يزاوج بين الفن الذي ولد معه واستحوذ على نفسه ، وبين الوظيفة التي تعينه على العيش ، فاعتزل الوظائف في ابريل ١٩٤٧ وكان في الخمسين من عمره ، قبل اغلاق المحاكم المختلطة بسنتين ، وقد بلغ منصب المستشار .. وهنا تفرغ للفن وحده .. وانتج منذ ذلك العام نحو مئة لوحة جديدة الى جانب عضويته في لجان الفن وهيئاته ومتاحفه ..

وفي عام ١٩٤٩ اشترك محمود سعيد في « معرض مصر – فرنسا » بمتحف اللوفر بباريس ومعه بعض الفنانين العرب . وكان الاعلان عن المعرض صورة افناتون مستوحاة من تمثاله ..

وفي ١٩٥٠ عرض بعض لوحاته في « البينالي الدولي للفنون بفينيسيا » .. (وفي بينالي فينيسيا اشترك محمود سعيد في الاعوام ١٩٣٨ و ١٩٥٠ و ١٩٥٢ ، و ١٩٥٤) .. وفي العام نفسه ١٩٥٠ عرض مع « جماعة محبي الفنون بالقاهرة » في قاعة الجمعية الزراعية بالقاهرة .. وفي معرض « اليونسكو » للفنانين العرب ببيروت .

وفي ١٩٥١ عرض لمحمود سعيد « بسراي الجزيرة بالقاهرة » ١٤٥ لوحة مختارة من انتاجه خلال حياته الفنية السابقة ..

وفي يناير ١٩٥١ منحته الجمهورية الفرنسية وسام « الليجيون دونير » تسلمه في حفل بالقنصلية الفرنسية بالاسكندرية تقديرا لفنه ، واعترافا بخدماته القضائية المقرونة بالنزاهة والعدل ..

وظلت صوره تشاهد بعد ذلك في المعارض الدولية : في « بينالي فينيسيا » ١٩٥٢ وفي كل من « معرض الفن الحديث» بالخرطوم ، و «معرض الربيع» بالقاهرة ١٩٥٣ . وفي « بينالي فينيسيا » للمرة الرابعة ١٩٥٤ .. وفي معرض الفن بموسكو ١٩٥٨ ..

وفي ٢٦ يوليه ١٩٦٠ في عيد الثورة الثامن للجمهورية العربية المتحدة نال محمود سعيد جائزة الدولة التقديرية للفنون من يد الرئيس جمال عبد الناصر .. واقيم له في تلك المناسبة معرض شامل احتوى على ١٢٠ لوحة مختارة تمثل تطور فنه ، وافتتحه محافظ الاسكندرية في « متحف الفنون » بالثغر ..

ولم تقتصر جهود محمود سعيد على انتاج تلك الثروة الفنية من الصور الخالدة التي سجلت الكثير من مظاهر الحياة الشرقية في عصره ، والكثير من صور الجمال الطبيعي في وطنه ، وكان فنه دعاية حسنة للفن الشرقي والفنان العربي في شتى اقطار العالم – فان حياته كانت ايضا مقسمة على الخدمة العامة – فالى جانب خدماته للعدالة في مناصبه القانونية اكثر من ربع قرن ، كان عام ١٩٢١ عضوا في « اللجنة الاستشارية للفنون الجميلة» .. وكان منذ ١٩٣٧ عضوا في « اللجنة الاستشارية لمتحف الفنون بالاسكندرية » ، وظل بها لآخر حياته .. وكان نائبا لرئيس « اللجنة الاستشارية للفنون بمصر » عام ١٩٥٠ (وكان يراسها محمود خليل) .. واختير عام ١٩٥٦ عضوا بالمجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب بالقاهرة . ومقررا للجنة الفنون التشكيلية ، وعضوا بلجنة المقتنيات (المعارض والمتاحف ونحوها) ، ولجنة التفرغ .. ولكنه لاسباب صحية طرات عليه في سن الستين ، استقال عام ١٩٥٧ من معظم تلك اللجان وتفرغ للتصوير وحده ..

واستطاع عام ١٩٦٢ ان يحقق رغبة قديمة في نفسه ، فارتحل الى بلاد اليونان وجزرها حيث قضى ستة اسابيع متنقلا بين الاثار والاطلال وجزائر بحر ايجه ، ومصورا الكثير من المناظر ، ومسجلا المذكرات و«المسودات الاسكتشات » والرسوم التخطيطية ، التي استكمل بناءها حين عاد الى الاسكندرية ..

ومحمود سعيد الانسان ، رجل دمث الخلق ، على كثير من النزاهة والحياء والتواضع ، ورب اسرة مثالي ، يميل الى التفرد في صومعته وفي هياكل الطبيعة ، ليتأمل

ويدرس ويصور .. وكان الى جانب ثقافته القانونية ، يقرأ الكتب المختصة بالفنون ، وحياة عباقرتها ، ويدرس الاثار القديمة ويتنقل بين الشرق والغرب لرؤيتها او تصويرها .. كما كان يقرأ الكتب الادبية وبخاصة القصص العالمي ..

واذكر من احاديثه الخاصة هذه الشذرات : « لحياة كل منا ادوار ومراحل له في كل منها ما يهمه وما لا يهمه .. وهناك اعمال فرغ منها عبر عنها ولا يعود اليها .. وانني اذا رجعت اليوم لأؤدي ما عملته منذ ثلاثين سنة فانما اكرر ذاتي ، اذ ليس الانسان بالشخصية الجامدة المتوقفة .. ولقد كنت مثلا في سن العشرين اتشاءم ، ثم حدث في حياتي ما جعلني اتفاءل .. ومن المحال ان تظل الشخصية على وتيرة واحدة ، بل هناك تغير مستمر وتطور وتقدم .. وارى ان هناك ازدواجا في الطبيعة الانسانية ، وانه ليس هناك خير محض ولا شر محض ، ولا رقي مطلق ولا انحطاط تام .. واني اعد قصص ديستوفسكي من قمم الادب الحديث لانه عرف كيف يحلل الطبيعة البشرية ، ويكشف عن دخائلها وعن متناقضاتها. وقد كان له مقلدون بعده بل ومن قبله ، ولكنهم لم يصلوا الى قمته . »

« والفن المعاصر في نظري هو المعاصر لجميع الاجيال .. وطبيعته تستدعي الحاجة اليه ، وتظل الحاجة اليه دائمة ابدية .. فالقيم العميقة الحية لها طبيعة الخلود .. خذ مثلا معبد « ابو سنبل » ومعبد « الدير البحري » بالاقصر ، واكروبول اثينا فانها من الاعمال التي لم يغير مر العصور من جدتها وعظمتها .. حتى بعض رسوم الكهوف والمقابر تجد فيها احيانا الحياة والجدة لان بها تعبير وبها صفات تستدعي البقاء .. ولكن هناك ايضا اعمالا وقتية طارئة تنتهي بعد حين قصير ، اذ تعوزها صفات الفن الخالد .. »

ثم قال لي : « ان اساس الفنون على وجه عام هو كفاح الانسان وارادته ، كفاحه لمأساته الكبرى ، فهو ليس بدائم وهو سيموت .. والفن وسيلة لتكون رحلته في الدنيا ذات اثر دائم ، انه صراع بين الانسان وبين شعوره بالموت صراع بين قصر الحياة ، وارادة البقاء وهذا معبد « ابو سنبل » يمثل هذه الارادة فكان عملا خالدا » .

وقال : « لا اميل الى الفن التجريدي لانه يجرد الانسان من القيم الشكلية . ولكن هناك في بعض الاعمال التجريدية ايقاعا مدهشا .. وفيه احيانا تكوين غامض لا يظهر للعين اول وهلة .. ولم ارسم صورة سيريالية أو تكعيبية أو رمزية بل ارغب في التعبير .. وطريقتي في التصوير صادرة عن طبيعتي ، تبدأ بشيء خيالي غامض ، ثم يتبلور ويتمدد وينتهي بتحقيق الرغبة التي في نفسي ، وصحيح انه ليس للعمل نهاية ، ولكن يأتي وقت يصل فيها الى نتيجة ..

وعندما ابدأ في صورة اعمل في كل مرتبط معا ، ثم في طبقات وادوار .. وتسير التطورات نحو كل شامل غير مجزأ .. »

ويقول عن الفن الحديث : « ليس من السهل التحدث عن الفن الحديث في اي بلد معين ، كفن له شخصية مستقلة بين فنون سائر البلدان . فان الحديث عن الفن بعامة ، متأثر الى حد بعيد بدراسات الفنون القديمة ، والنظريات المستحدثة ، في التعبير بالنحت والتصوير.. والواقع ان الفن عامة لا وطن له ، وهو لا يعرف حدودا ولا قيودا .. ومن العبث محاولة حصره في اصول محدودة، او قياسه بمعايير خاصة .. وكل ما ظهر من مدارس او مذاهب في الفن ، لم يقيد الفن نفسه ، وانما كانت اوصافا لاساليب مختلفة في التعبير الفني . والفن لا ينسب الا الى الفطرة .. »

وقال : « عندنا كثيرون من المعاصرين وصلوا الى درجة من الفن والنبوغ يقارنون بها بفناني العالم الكبار سواء في التصوير ام في النحت .. وعندنا مثلا مختار والسجيني وغيرهما .. ولكن من الصعب الحكم على من يعاصرنا الان.

وختم محمود سعيد ـ يرحمه الله ـ حديثه بقوله : انه يسأل الله « ان يحفظ له في عمله عينيه وساقيه كي يتابع رسالته في فن التصوير . والساقان ضروريتان في الحركة في المسافات ، وفي الاقتراب والابتعاد ... »

غير ان المرض هد قواه واعجزه عن العمل حتى استراح في دار البقاء في الثامن من ابريل ١٩٦٤ مخلفا اكثر من خمسمائة لوحة فنية رائعة كما سلف .

الاسكندرية — **نقولا يوسف**

(تتمة المنشور في صفحة ٢٩)

شحاده على التشاؤم البادي في البيت الثاني قال على الفور :

نعم كلها النساء فما — اعجب الا من زاهد بالزواج !

وذات يوم شهد في احد حوانيت القدس سيدة شمطاء قبيحة المنظر ترتدي معطفا انيقا فاخرا فهتف من اعماق قلبه بلسان ذلك المعطف (المظلوم) بقوله :

نزلت ربة الشناعة يوما — تبتغي حلة الحرير الثمين
فاشترتها وحالما لبستها — صاحت الحلة: اشلحيني اشلحيني!

وداعب يوما شيخا يعلم حسناء اللغة العربية تعذر عليها لفظ (الضاد) فكانت تقول (الدلال) بدلا من (الضلال) بقوله :

يا ايها الشيخ المعلم غادة — صعبت عليها (الضاد) في اقوالها
خل (الضلال) لاهله وانعم بمن — سبت العباد بحسنها ودلالها
لا خير في (ضاد) اذا هي بدلت — يوما جميل (دلالها) بـ (ضلالها)

من آثاره القلمية : (١) القراءة للصغار . (٢) كتاب الصرف . (٣) مجموعة اشعار للبنات .

عمان — **البدوي الملثم**



يوسف عبد المسيح ثروة

برتولد برخت : العاصفة والبرق

بقلم يوسف عبد المسيح ثروة

* * *

للادب الالماني الحي مكانة سامية في الادب الاوروبي المعاصر ، ويعود سبب ذلك الى قدرة هذا الادب على معالجة الشؤون الانسانية والوطنية معالجة فيها معاناة حقيقية ، سدتها ولحمتها المشاركة الوجدانية الحارة والاندفاع الواعي في مسايرة روح العصر والمناهضة الجدية لكل النفايات الفكرية المتحجرة والانظمة المتهرئة المبنية على العاطفية الفوغائية الجوفاء التي اراد الفوهرر ان يخلق منها نظاما للعالم الجديد العتيد ، فباد ونظامه بين ليلة وضحاها وظل الادب شامخ الراس ، عالي الصدر ، رفيع الشأن . يتطاول سموا ورفعة وقدرا على حين دفعت دوامة التاريخ بالفوهرر واتباعه الى حيث قمامة الظالمين من الطغاة المتجبرين .

ومن الادباء البواسل الذين ناجزوا ذلك الطاغية توماس مان وهنريك مان وفوختفانفر وريمارك وبرتولد برخت ، وكان للاخير القدح المعلى في مضمار القراع الفكري الذي اشتد اواره واستشرى امره وازداد خطبه في طول المانيا وعرضها بعد ان قبض قواد رواد حانات مونيخ على مقاليد الحكم في بلد هردر وشلر وغوته ، فساموا الناس سوء العذاب واذاقوهم مر الكؤوس دهاقا ، واسلموا الكتب للنيران نهارا جهارا وحطموا الارواح وازهقوا النفوس وشتتوا الاسر والعوائل ايادي سبأ وبعثوا الرعب في القلوب حتى امتلأت به ، وجنوا على الناس في كل شان من شؤونهم وفي كل مرفق من مرافقهم . غير ان النخبة الصالحة من الادباء الاحرار لم تستطع صبرا على هذا البلاء الذي حل بساحتهم كانه الطاعون الاصفر ، ففروا من بلدهم هربا الى ملاذ يلوذون به في ارض الله الواسعة . الا ان هربهم لم يكن عن جبن في جبلتهم او حطة في نفوس او وضاعة في خلقهم ، بل هم فعلوا ذلك لعرفانهم حق العرفان ان الطوفان لا بد مفرقهم ومفرق شعبهم قبل ان يكون لهم يد في انقاذه من محنته ولا سيما والظلام الدامس يهدد القارة الاوروبية بسيل العرم الجديد ، سيل الوباء والدم وعفونة الابادة الجسدية والقضاء على زهرة شعوب باسرها ، لان لونها كذا ودينها كذا ، ولان الدم الازرق لا يجري في عروقها ، او لان آريتها قليلة الاثر في المختبر العلمي الذي يديره الدكتور العالم فلان . هكذا وبكل بساطة وسذاجة غبية حمقاء افنيت الملايين والملايين من النفوس البريئة لا لسبب جنته الا لانها جاءت الوجوه في فترة الوباء والبلاء والعمى تلك وفي بلد ابتلي بهذه الآفات جميعا .

ولا شك في ان برخت حمل كل هموم شعبه على كاهله وهاجر ، تحت طائلة الموت ، مجبرا وانتقل من بلد الى اخر ، جريحا ينز قلبه دما ونفسه هما وصدره قيحا ، وهو الذي عرف بالرقة واللطف والبشاشة ، فتحولت هذه السمات اللطيفات الى سخرية عاصفة تشتد كلما اشتد الزمان قساوة ، وكلما ازداد الشر واقتلعت اعمدة الخير الواحدة تلو الاخرى ، واصبحت القيامة على قاب قوسين او ادنى . وعلامة ذلك هي هذه الصلة الوثيقة بين الواقع الموضوعي (حيث يعيش الناس في ظل السواستيكا المرعب المخيف) وبين المستقبل الذي كان يرنو اليه برخت بحرارة وامل ورجاء . وفي هذا التناقض العاري تكمن عبقرية مسرح برخت ، لانه – اعني المسرح البرختي – تعبير شعبي ملحمي ، ابطاله البشر الاسوياء الاعتياديون الذين يعانون البرحاء مما هم فيه من عناء فيحنون الى عالم غير عالمهم الذي فيه اكتوت جلودهم ووجودهم باسره حتى استحالوا الى قطيع يقاد الى المجزرة وهو لا يدري . وهذا المسرح الجديد الذي ينتفي فيه الابطال بالمعنى المعروف من الكلمة ، مسرح هز العالم لانه يناهض الارسطية ووحداتها الثلاث ، ويناهض شكسبير وابطاله الذين يمسكون بتلابيب المشاهد بقوة وعنف . والى هذا اشار احد البرختيين السوريين حين قال : « اذا كان في العالم شخص استطاع ان يعطي للمسرح معانية التوجيهية والشعبية والانسانية ..فهو برتولد بريخت . ان بريخت يمتاز على شكسبير باختياره ابطال شخصياته من عامة الشعب لا من طبقة الملوك او الامراء الحقيقيين او الاسطوريين . وعندما استعمل كلمة (بطل) بالنسبة لمسرح بريخت اخطىء ، لان فكرة البطل غير موجودة عند

بريخت ، وشخصيات مسرحياته هي نماذج من شخصيات الحياة فحسب واذا كانت الحياة مسرحا فالانسان هو الممثل فعلا عند بريخت ، بينما يكون البطل هو الممثل عند شكسبير (١) . وهذا الامر نفسه هو الذي حدا بعبد الفتاح الديدي (الكاتب المصري) الى ان يقول « ولا شك ان بريخت قد نجح في اعطاء مفهوم مغاير للمسرح . ولا شك ايضا في انه استطاع ان يمشي بهذا المفهوم الجديد جنبا الى جنب مع مسرحيات ماريفو وشكسبير وهوجو وموليير . واستطاع ان يثير بنظرياته المستحدثة عاصفة من النقد العنيف ضد المسرح التقليدي » ولكنه يستدرك فيقول : « وعلى الرغم من انتصاره الى حد كبير . . .وعلى الرغم من انه حقق نجاحا حقيقيا بمسرحه الملحمي الى جانب المسرح التقليدي فانه لم يستطع اقفال الابواب ولو جزئيا في وجه المسرح التقليدي » (٢) .

والتخلص من الابطال المعروفين ، في المسرحيات الكلاسيكية يعد نفسه عملا فنيا جديرا بالتقدير والاعجاب لانه افسح في المجال للناس الاعتياديين ليحلوا محل الابطال الاسطوريين وغير الاسطوريين ، ولانه بهذا العمل لم يفعل ذلك حسب بل جعل النظارة يواجهون الصنيع الفني ويدرسونه من طريق الاغراب وقد شرح ذلك الدكتور عبد الغفار مكاوي في ترجمته الممتازة لـ « القاعدة والاستثناء » و « محاكمة لوكوللوس » فقال في مقدمته الضافية : « الاغراب يجعل الممثل (يعرض) دوره على المتفرجين بدلا من الاندماج فيه ، ويحفزهم على الدهشة من الواقع الذي يصوره لهم ويدفعهم على نقده والثورة عليه » . ومن هنا فان نقد الواقع الحي الاجتماعي الذي يتخبط به انسان بريخت هو مفتاح مسرحه وادبه باسرهما ، وهو المسار الذي ينبغي تلمسه ذهنيا في جميع ما كتبه سواء في المسرح ام في الفن المسرحي ام في القصة .

والنقد متى ما اشتد ساعده تحول الى ضربين : احدهما هدام يقتلع الجذور الفاسدة المتهرئة كالعاصفة ، والثاني نور كشاف كالبرق يساعدنا على رؤية ادق العواطف والمشاعر الانسانية بلطف ولين وتؤدة . وطبيعي ان تكون السخرية العارمة محور النقد الهدام ، الذي عدل بريخت على معوله للقيام بواجبه الاولي في وجه اوروبا البليدة التي قضت على ابنائها البربرة في حربين لعينتين ، بل آفتين اكالتين بين نهاية الاولى وبداية الثانية احدى وعشرون سنة وحسب . وقد كان لسخريته هذه اثرها الفعال في هز النفوس من هجعتها شبه الميتة واثارة كوامن الخواطر وشحذ الهمم لصب الغضب المقدس على الحرب ودعاتها ومموليها وكشف زيف المجتمع الذي لا يقدر على حل مشاكله الاقتصادية والسياسية بغير الحرب التي هي تتمة او تكملة للخطى السياسية المعروفة ولكن باسلوب اخر كما قال عالم الحرب الالماني كلاوتزه في كتابه « الحرب » : وهل اروع من محاكمة « لوكوللوس » ادانة للحرب في الادب المسرحي وبخاصة الالماني منه ، وهل ابقت الصراحة والمكاشفة والمواجهة على شيء من هذه المناظرة بين الامبراطور لوكوللوس والمعلم والاول في هذا الصدد يمثل هتلر الرائد الاول لحانات مونيخ ويمثل الثاني سائر طبقات الشعب الالماني .

« لوكوللوس : يا لكم من رومانيين ! اتقفون تحية لعدوكم ؟ انني لم اذهب الى الحرب لاجلي ، بل ذهبت تنفيذا للاوامر . روما هي التي ارسلتني .

المعلم : روما ! روما ! روما ! من هي روما ؟ هل ارسلك البناؤون الذين يشيدونها ؟ هل ارسلك الخبازون والصيادون والفلاحون وسائقو الثيران . وعمال البساتين الذين يقدمون لها الغذاء ؟ هل ارسلك الخياطون وعمال الفراء ، والنساجون وحلاقو الخراف الذين يقدمون لها الكساء ؟ هل ارسلك العمال الذين يصقلون الاعمدة ؟ ام ارسلك الملاك وشركات الفضة وتجار الرقيق والبنوك التي تسرقها ؟ (٣) » .

اما الجنود الذين ذهبوا ضحايا وقرابين وسالت دماؤهم انهارا في سهوب الشرق الاوروبي وسهول الغرب فانهم يدينون هتلر ادانة صريحة لا لبس فيها ولا ابهام ويقولون في نفس واحد :

« في رداء اللص ، في البزة التي اغتنمها القتلة السفاحون سقطنا صرعى ، نحن ابناء الشعب . آه اجل ! فلترسلوه للجحيم ! كمثل الذئب ، الذي يتسلل الى الحظيرة ولا بد له ان يقتل ، قتلنا نحن ايضا في خدمته. آه نعم ، فلترسلوه للعدم . ليتنا انضممنا الى صفوف المدافعين ! (٤) » .

وفي موضوع الحرب والمتاجرة بمآسيها وكوارثها ومنافعها الاقتصادية لطبقة الطفيليين الذين يمتصون دماء الناس ، سائر الناس باسم القانون في ايام السلم ويريقون هذه الدماء في ايام الحرب باسم القانون ايضا ، في هذا الموضوع كتب بريخت رائعته « قصة القروش الثلاثة » وهو في هذه القصة الفريدة ينقد النظام الاجتماعي القائم نقدا ناريا فظيعا ، لان كيانه الاقتصادي ينهار حتما بسبب الازمات المتواليات اذا لم يكن له صمام امان ينفس عن غليانه وغلوائه وينفق الفائض من انتاجه وهل صمام الامان سوى الحرب بشاعتها وفظاعتها وشناعتها ؟ ففي خطاب القاه السيد الدلال وليم كوكس قال : « . . من الذي يشعل الحرب ؟ الجندي ورجل الاعمال. . .رجل الاعمال هو الذي يجهز السفينة والجندي يبحر فيها . رجل الاعمال انسان واسع الحيلة داهية والجندي بطل لا يشق له غبار . . . وفي مصلحة البلاد لا داعي للاهتمام بمشاكل المال وكيفية حلها . . . الحكومة تحتاج الى وسائل مواصلات ونحن نستطيع تجهيزها اذ نحن نعرف كم تكلف ، الحكومة لا تتساوم (معنا) لانها

تعرف ان المال سيبقى في هذا البلد (٥) » . هذه سخرية باردة قتالة تنبئك بالف خبر وخبر وتكفيك عن تلمس المعنى العميق لان الوضوح الصريح مائل امامك لا يومىء ولا يشير ، انما مجرد مثوله امامك كاف لمعرفة العلة والمعلول في ارتباط دهاقين المال بارباب السياسة ومن ثم بالحرب وافاعيلها ، واذا ما تذكرنا ان هذه القصة تتحدث عن حرب « البوير » في مطلع القرن العشرين لكفانا ذلك مشقة الاستزادة من المعلومات عن الحروب ، اذا ما قيست الحرب تلك بالحربين العالميتين الاولى والثانية . ومما له دلالته الخاصة ما جاء في القصة الانفة الذكر عن قادة رجال المال الذين يمولون الحروب ويدفعون بالناس زرافات ووحدانا الى اتونها فقد ورد فيها : « ثمة اناس قادرون على عدم التأثر بصورة قطعية بمشاعر الاخرين ، وهم يستطيعون الابتعاد عن واقع الحياة ، والجهر بافكارهم بحرية وصراحة بغير اعتبار للزمان والمكان . اناس مثل هؤلاء ولدوا ليكونوا قادة . » وطبيعي ان ينطبق هذا الوصف على قادة الحرب ومشعلي فتائلها والذائدين عن حياض جرائمها ومن دار في مدارهم .

اما الاعداد للحرب والعمل جهد الطاقة على اشعالها ابتغاء السحت الحرام فقد اوضحهما بيري (احد ابطال قصة القروش الثلاثة) بقوله : « علينا ان نعمل جاهدين على اشعال الحرب ففي اشعالها فرص غير محدودة لاكتناز المال وتوفيره .. ستجري حركات غير متوقعة اطلاقا وما عليكم الا ان تستفيدوا منها الفائدة الصحيحة لتصبحوا من اصحاب الملايين . » ولا شك في أن السبب الرئيسي للحرب هو المنافسة الاقتصادية فيما بين الدول المتقدمة من جهة وبين تلك والدول الناهضة المتطلعة الى النور والحرية ، وهذه المنافسة هي جوهر فلسفة الكون على ما تذهب اليه « قصة القروش الثلاثة » على لسان فيوكومبي حيث يقول : (ان تطور الحياة باسرها على كوكبنا هذا يمكن تفسيره بكلمة واحدة : المنافسة » ومن هنا فالشقاء محتم على البشر ذلك « بان الشقاء شامل للكون كله . وهو الحالة الطبيعية لمجريات الامور . العالم شقي تماما كالشجرة حين تكون خضراء » و « ذوو العاهات والمتعقدون والنفايات المهجورون يريدون قبل كل شيء زيادة عددهم . ذلك بان التعاسة تمتلك دائما غريزة لا تقاوم من اجل الانتشار والذيوع » والبطلة بولي تتحدث عن فلسفة ابيها السيد بيتشوم فتقول : « طبعا هو يعرف ان الفنى هو الوجه الثاني من الفقر فما اغتنى احد الا من فقر غيره » وزوجها السيد ماكيهيث (السكين) يعلل الحياة باسرها بقوله : « الرجل المريض يموت والقوي يبقى يصارع . هذه هي الحياة . » ومما يقوله بهذا الشأن ايضا : « ان الضعيف هو الخائف ، وعليه ستدور عجلة القدر وبعد ان تهشمه وتحطمه تمضي في سبيلها ... » وليست هذه العجلة هي بمحلة القدر الغيبية التي كانت العوبة بيد المشعوذين والدجالين من الشعراء والكهنة اليونانيين في معبد دلفي وما سواه من معابد وهياكل ، بل هي القوة الاقتصادية ، هي الربح المادي المعروف المحض ، ولذلك يقول المجرم البطل ماكهيث المعروف (بالسكين) : « ليس من شيء غير الربح المادي ... ان البشر هم بشر وليسوا ملائكة والقوي منهم يغلب الضعيف وهذه سنة الطبيعة . » وهذا البطل هو القائل بغضب وعنف عندما واجه احدى عشيقاته المدعوة فاني : « لماذا يحاول كل الناس ان يخدعوني ؟ انا اعمل ما بوسعي لاصبح محترما ، واحاول الابتعاد عن استعمال العنف وانا احاول كذلك ان اساير القانون ، انني ارفض ماضي . وسأعقد عقد زواج رابح مفيد ... لكنهم يريدون ان يسلبوني اشيائي » .

اما فيلسوف « قصة القروش الثلاثة » بطل المؤامرات والمغامرات والمتاجر بالعاهات الكاذبة ، وصديق الشحاذين والمفلسين والاغنياء المترفين ، وخدين الحكام المختلسين المتلاعبين بارواح البشر ، فانه « يفلسف » الحرب باسلوب طبيعي هادىء ، كأنه عالم طبيعي يصف ظاهرة طبيعية اعتيادية من الظواهر التي اعتاد على وصفها كثيرا فيقول: « الحروب والاعاصير والزلازل ومشاريع الاعمال ، والمجاعات كلها امور لا يمكن تجنبها . وكل من يعرف الطبيعة الانسانية يعرف ايضا ان جهاد الانسان مقضي عليه بالخيبة والاخفاق . وهذا ما يقول به الكتاب المقدس كذلك وهو ما ينبغي الا يفارق ذهننا ابدا . » ثم يستطرد ببروده المعهود قائلا : « ليس في استطاعة المرء ايقاف الحروب كما ليس في استطاعته ايقاف الازمات . فحين تنعدم الفائدة من تشغيل الناس ينبغي رميهم الى الشوارع والازقة » .

والحرب واستغلالها اقتصاديا هما ليسا موضوع مسرحية « القاعدة والاستثناء » كما هي الحال مع « قصة القروش الثلاثة » لكن يمكن رؤيتهما عن بعد ، لان المنافسة الاقتصادية هي التي دفعت بكارل لانجمان الى ان يعبر احدى الصحاري الهندية ليسبق منافسيه الى الحصول على امتياز البترول ، وهذه المنافسة هي تمهيد طبيعي للحرب . وفي هذه المسرحية نجد العدالة تنتصر لاصحابها (الشرعيين) ومن هم هؤلاء الاصحاب الشرعيون غير

---

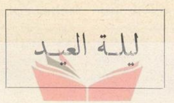
(١) حول المسرحين الشعبي والتوجيهي بقلم شريف خزندار ـ مجلة المعرفة السورية ع ٣٤ سنة ١٩٦٤ (٢) مسرح بريخت ـ مجلة الثقافة القاهرية ع ٩٥ سنة ١٩٦٥ .(٣ ، ٤) (الاستثناء والقاعدة ومحاكمة لوكوللوس) ترجمة الدكتور عبد الغفار المكاوي . (٥) قصة القروش الثلاثة : برتولد بريخت ، ومن المؤسف الا تترجم هذه القصة الى العربية حتى الان . (٦) و (٧) «القاعدة والاستثناء ومحاكمة لوكوللوس» ترجمة الدكتور عبد القادر مكاوي.(٨) انا مدين في هذا الرأي الى ديز موند . آي فيزي مترجم المسرحية من الالمانية .

اصحاب الكلمة والنفوذ والمال والجاه ؟ ومن غيرهم من سواد الناس غير بضاعة تشرى وتباع تبعا لقانون العرض والطلب في سوق النخاسة الاقتصادية ، وكيف لا يكون الامر كذلك والقاضي العادل يقول : « الحق ان الاجير ينتمي الى طبقة من الناس تحس دائما انها مظلومة ومهضومة الجانب . فلم يغب عنه ، وله الحق ، انه لن يحصل على نصيبه من الماء ما لم يغتصبه بالقوة . بل اني اذهب ابعد من هذا فاقول ان هذا النوع من الناس ضيق الافق محدود التفكير ... انهم لا يرون ابعد من انوفهم ولا بد ان الاجير كان يرى ان انتقامه من جلاده امر طبيعي لا غبار عليه .. ان التاجر من طبقة غير طبقته ... فمن الطبيعي الا ينتظر خيرا من جانب الاجير بعد ان عامله ، على حد قوله ، معاملة وحشية وهداه تفكيره الى ان هناك خطرا محققا يتهدده وخلو الصحراء من اي اثر للانسان قد ملأ قلبه ذعرا فلا بوليس هناك ولا محاكم ... من هذا يتبين ان المتهم كان في حالة دفاع مشروع عن النفس (٦) » . وهكذا برئت ساحة القاتل من مسؤولية القتل بالشك الذي هو باب اليقين ورفضت الدعوى المرفوعة من زوج القتيل ، لانها لا تستقيم ومنطق العدالة المبني على اساس تساوي الفرص بين المدعي والمدعى عليه . ومن هنا (فالقاعدة) هي الظلم و (الاستثناء) هو العدل ، فالخير شيء لا يمكن الا ان يساء فهمه من قبل المستغلين المتنفذين وبخاصة اذا ما قدمه ضعفاء من سواد الناس ، كرماء بطبيعتهم ، بسطاء لا يفرقون بين جلاديهم ومستغليهم ، وبين اخوانهم في انسانيتهم المهانة ، وهذه البلاهة الساذجة الرعناء هي التي تحمل المثلين في « القاعدة والاستثناء » على القول مخاطبين النظارة والمتفرجين :

« لا تقبلوا العادة المتوارثة على ما هي عليه ، بل فتشوا عن وجه الضرورة فيها . نحن نناشدكم على الدوام الا تقولوا (هذا طبيعي) .. ففي زمن يسوده الاضطراب وتسيل فيه الدماء ، ويدين بالفوضى ، ويقوم العسف والطغيان فيه مقام القانون ، وتفقد الانسانية انسانيتها ، لا ينبغي لكم ان تقولوا (امر طبيعي) حتى لا يستعصى شيء على التغيير والتبديل (٧) » . اليس هذا النداء ، الذي صدر عن بريخت نداء عجيبا ، ذلك بانه صدر في سنة ١٩٣٠ وجاءت الاشتراكية الوطنية ، العاصفة بكل القيم الى الحكم في سنة ١٩٣٣ . وكان ما كان من امر الالمان وما اكتووا به من نيران احرقت الحرث والنسل وابتلعت عشرة ملايين منهم تنفيذا لنزوة الطاغية .

اما مسرحية « اوبرا القروش الثلاثة » فهي تحذو حذو « اوبرا الشحاذ » لجون غاي الكاتب المسرحي الانكليزي المعروف ، وقد كتبت تلك المسرحية قبل اكثر من قرنين من الزمن . لم يغير بريخت حتى اسماء الشخوص لكنه وسع الدلالات والرموز وذلك من طريق عرض المفاهيم البرجوازية عرضا لم يقتصر على مضامينها حسب بل الطريقة التي عرضت بها ايضا (٨) . والمسرحية هذه ضرب من الايجاز يلخص الحياة تلخيصا يريد المتفرج مشاهدته . انه لا يشاهد الاشياء التي يرغب في مشاهدتها حسب بل هو يشاهد الاشياء التي لا يريد ان يواجهها ايضا ، ومن هنا فهو يرى رغباته في حيز الصيرورة والانجاز ، ويراها معرضة لنقد لاذع مر كذلك ، وهذا النقد هو القوة الدينامية السحرية التي هي عصا الساحر بيد بريخت الساحر الساخر . و (البطل) الرئيس في المسرحية هو نفسه (بطل) « قصة القروش الثلاثة » السيد جوناثان بيتشوم ، وهو انسان وغد لا شك في ذلك ، وهو كذلك في عرف المسرح القديم ايضا . اما جريمته الرئيسية فتكمن في فهمه للعالم بصفته قوة معتدية لا هم لها غير ايقاع الشر وانزال الضرر بابناء البشر ، ولذا فهو يعد التعاسة بضاعة من البضائع يستغلها لمآربه الخاصة . ولما كان العالم شرا محيقا بنا جميعا فلا بد من التوجس منه والابتعاد عنه وكلا الامرين سبب من اسباب الخوف الذي يسيطر على نفسية بيتشوم سيطرة تامة ، ومن هنا نرى ابتعاده عن العمل واقتصاره على الاشراف على العاملين لديه . اما صهره ماكهيث ، قاطع الطريق المعروف ، والمجرم العائد ، فهو يمثل خير تمثيل النفسية البرجوازية ، مع فارق واحد هو ان قاطع الطريق لا يعرف عادة معنى من معاني الخوف . وماكهيث هذا مسيطر سيطرة كلية على اعصابه فتراه يقتل ببرود عجيب وتراه يتقبل اتعاب اتباعه من العصابة استغلالا بشعا للغاية من غير اهتمام بمصائرهم وقد يدفع ببعضهم الى الموت بيسر وسهولة كما يدفع بالاخرين الى السجن وكأنه يدعوهم الى وليمة . وهذا التناقض بين نفسيتي بيتشوم وصهره ماكهيث هو تناقض بين الخوف الرعديد الذي يمثله الحمو والجراة الوقحة الباردة التي يمثلها الصهر . وعلى اساس هذا التناقض الدينامي بنى بريخت مسرحيته الشامخة « اوبرا القروش الثلاثة » . وليس ادل من خوف بيتشوم من تقلبات الزمن من قوله وهو يحاور بنته بولي : « بيتشوم : طبعا ، والدك العجوز محق ، العالم فقير والناس اشرار ... قد يكون اخوك محبا لك ، لكن ما ان ينقطع رفدك عنه حتى يجتثك من مكانك . قد تكون زوجتك حفية بك محبة لك ، الا ان حبك ان لم يفدها في شيء اقتلعتك من موضعك . قد يكون اولادك متعلقين بك ، لكنهم ، اذا ما قطعت عنهم المعونة قطعوا عنك سبيل الحياة . » ويضيف بيتشوم الى ذلك قائلا : « العالم فقير والناس اشرار ، آه لو كنا صالحين ولم نكن طالحين لكن هذه الدنيا العجوز ليست اما صالحة . »

بغداد — يوسف عبد المسيح ثروة



بقلم وليد قصاب

الاضواء الباهرة تتلألأ في كل مكان .. في ليلة راس السنة ، العالم كله يرقص منتشيا على نغمات موسيقى حالمة تنبعث من كل صوب ومكان ، والسماء من بعيد تتشح ببعض السحب ، والاضواء الزاهية تتراقص على صفحة بردى الساحر ، وثمة فرحة طاغية تغمر النفوس ثم تنعكس على الوجوه وتتراقص على الشفاه ، انها ليلة العيد ، عيد راس السنة .. ليلة فرحة .. حينما تدق الساعة اثنتي عشرة دقة سينصلت من عمر العالم عام اخر لينضم الى قائمة السنين التي طواها الزمن ، وهنالك سؤال حائر يتضارب في كل خاطر ، ويلح على كل مخيلة ترى ماذا يحمل العام الجديد ؟...

وانا قابع في سيارة تاكسي انيقة تشق بي شوارع دمشق التي احتشدت بها الجموع الصاخبة تشهد تفتح العالم على مولد العام الجديد .. وفي جيب سترتي اليمنى علبة انيقة تضم ثمن سوار في المدينة من اشهر محل في البلد كله .

لقد استطعت بأعجوبة ان اخفيها عن اعين زوجتي الطيبة ، ظللت انقلها من جيب الى اخرى ، ومن درج المكتب الى درج (الكومودينا) .. الى درج المكتبة .. الى .. الى .. حتى استطعت اخيرا ان اواريها عن عينيها . وعندما وقفت اودعها قبل ان اخرج من المنزل كانت نبضات قلبي تتسارع كأنما كنت اخشى ان تطل العلبة من جيبي لتفضح سري ، وتخبر زوجتي الطيبة انني ذاهب الى الموعد مع ...

وكان في عيني زوجتي في تلك اللحظة نظرة غريبة ، تمتزج فيها النشوة بالتساؤل ، ولكنه كان تساؤلا صامتا . وعندما وقفت اقبلها قبلتي الباردة قبل ان اغادر المنزل ، كنت احاول ان ابتعد بنصفي الاسفل عنها حتى لا يصطدم جسدها بذلك الشيء القاسي الذي يتربع في جيب سترتي . وتلقت زوجتي قبلتي الباردة في صمت ، ثم لما افلتها من ذراعي قالت لي وهي توصلني الى الباب :

ــ حاول الا تتأخر .. سأظل ساهرة بانتظارك ..

فاستدرت اليها ويدي تمسك بالعلبة الفضية ، وقلت وانا اربت على كتفها بيدي الثانية :

ــ لا تزعجي نفسك يا حبيبتي .. قد اتأخر قليلا .. فالقضية كما قلت لك جد مستعجلة ، ويجب ان انتهي منها في هذه الليلة ..

ــ ولكن ..

ولم تكمل زوجتي سؤالها ، فقد كنت قد استدرت مسرعا نحو الباب لكن كلمتها استوقفتني ، فوقفت عند الباب وقد وضعت نصفي الايمن خارج المنزل ، ثم واجهتها وسألت :

ــ ولكن ماذا ؟..

وترددت لحظة ثم قالت : ــ انها ليلة العيد ..

وامسكت لحظة ، ثم اكملت عبارتها :

ــ ليلة فرحة .. ويجب ان نحتفل بها ..

وتذكرت فجأة كأنما كنت قد نسيت ، انها حقا ليلة العيد .. عيد راس السنة ، ومع ذلك فأنا اكاد انطلق من المنزل حتى بدون كلمة حلوة اهمس بها في اذن زوجتي بهذه المناسبة ، وتذكرت العلبة ايضا ، والسوار الثمين الذي فيها ، فشددت اصابعي الضغط عليها كأنما كنت اخشى ان تطير ، ثم طوقت زوجتي بذراع واحدة ، وطبعت على جبينها قبلة باردة وقلت اعتذر :

ــ عدم المؤاخذة يا حبيبتي .. لقد كدت انسى .. انها حقا ليلة العيد .. ولا بد لي من ان اقدم لك التهنئة بهذه المناسبة السعيدة ، وارجو ان تكون ايام عامك كلها فرحة وسعادة واشراق ..

وابتسمت زوجتي بحزن مسالم ، ثم اطرقت براسها الى الارض ، وعندما تطلعت اليها قبل ان اغادر المنزل ، كان ظاهرا بوضوح انها تطلب شيئا ، ولكنها لم تحاول ان تفصح عنه في اول الامر ، وعندما سألتها :

ــ هل تريدين شيئا يا حبيبتي قبل ان اخرج ؟

ترددت لحظة قبل ان تقول :

ــ اليس من هدية في راس السنة؟

ولست ادري لماذا خيل الي لحظتئذ ان الاشياء بمكنتها ان تتحدث في كثير من الاحيان لتفضح اسرار الانسان . خيل الي ان العلبة تطل براسها من جيبي اليمنى لتخبر زوجتي كل شيء ، على الرغم من ان يدي كانت تقبض على العلبة في قسوة ، وكان جنبي الايمن كله متواريا خلف الباب ، الا انه قد خطر لي ان زوجتي تستطيع ان ترى العلبة ، ومن ثم فانها تعرف انني انطلق الى ..

تلعثمت افكاري ، لم ادر بماذا اجيبها ، ولكنها قطعت علي حيرتي وتبلبلت افكاري بضحكة مرحة اطلقتها ، ثم قالت في بساطة الطفل :

ــ لا عليك انني امزح .. ان خير هدية تقدمها الي .. هي الا تتأخر علي بالعودة .. فعضضت شفتي ، ولم اقل شيئا ، وانطلقت الى الشارع ، ثم القيت بنفسي في سيارة انيقة واعطيت السائق عنوانها . جعلت



اتطلع من زجاج السيارة ، كانت المدينة الكبيرة تموج باضواء الفرحة ، والوجوه الباسمة ، والاشياء الجديدة في كل مكان ، والازدحام في الشوارع على اشده ، وحركة المرور متوقفة في اكثر من شارع ، ومع ذلك فقد كنت الح على السائق ان يسرع ، فان الموعد يكاد يفوتني ، وثمة صورة جميلة تطل علي من خلال الاضواء الباهرة والجموع المحتشدة ، انها صورة (مزين) تلك المراة الساحرة التي تعرفت عليها من ثلاثة ايام فقط، ومع ذلك فقد استطاعت ان تخلبني بابتساماتها الساحرة ، وقامتها الملفوفة ، وعينيها الرماديتين الصافيتين ، حتى انني نسيت زوجتي وولدي ، وما كدت اقبض راتبي في نهاية الشهر حتى اسرعت الى اشهر محل في البلد كله ، بعد ان استدنت فوق مرتبي مبلغا اخر لاشتري لها هذه الهدية الغالية التي احملها الان في جيبي ، واسرع بها اليها ...

تحسست بيدي العلبة الثمينة ، ثم اخرجتها من جيبي وفتحتها ،ورحت اتطلع الى السوار الجميل باعجاب.. انه تحفة .. تحفة نادرة .. وانني لأتصور تلك الفرحة التي ستغمر وجه (مزين) حينما امسك يدها البضة ، لاضع في معصمها السوار الذهبي.. عصفت بقلبي الفرحة انا الاخر ، فتطلعت الى الساعة ، ثم وضعت يدي على كتف السائق البدين ، وقلت استحثه :

ــ اسرع ارجوك .. انني مرتبط بموعد هام..والوقت يكاد يفوتني..

فالتفت السائق الي ، ورمقني بحدة ، ثم قال لي في شيء من الفلظة:

ــ لقد قلت لك ان الطريق مزدحمة جدا بالمارة ..ولا يمكنني ان ازيد السرعة اكثر من ذلك .. لان هذا يخالف لوائح المرور من ناحية ، بالاضافة الى انه يعرض حياة المارة للخطر ...

ولكنني لم احفل بقول السائق ، وعندما اجتزنا منطقة الازدحام ، وضعت يدي ثانية على كتف السائق، وقلت له في حدة :

ــ قلت لك اسرع ارجوك ..لقد اجتزنا منطقة الازدحام ..

فاستجاب السائق لطلبي في هذه المرة ، واطلق لسيارته العنان ، فمضت السيارة تشق بنا شوارع دمشق المزدحمة كانها السهم المارق.. ولكن .. حدث فجاة .. ان برزت سيارة من احد المنعطفات ..فصرخ السائق بجزع .. ثم احسست بعد ذلك بصدمة قوية اهتز لها جسدي كله من الفرع حتى القدم ، ثم شعرت بحالة اغماء شديدة ، ولفني بعدها ظلام قاتم ...

عندما فتحت عيني كانت الام عنيفة تضج بساقي اليمنى ، فيهتز لها جسدي كله ، فاحس اني اترنح تحتها في اعياء مميت ، وعندما تطلعت الى ساعة الحائط ، كانت عقاربها تشير الى الثانية عشرة عند منتصف الليل وبعد لحظة ، دقت اثنتي عشرة دقة رتيبة متتابعة ... كنت وحيدا في الفرفة ، والى جانبي كانت طاولة صغيرة ، وضعت عليها علبة انيقة غالية الثمن ..

في اليوم الثاني عندما حضرت زوجتي لتزورني في المستشفى كنت في حالة اغماء فلم اشعر بدخولها.. ولكن عندما فتحت عيني بعد ذلك ، كان باب الغرفة مشقوقا ، ومن خلال الباب ، لمحت زوجتي ، كانت تقف مع المرضة ، وكانت المرضة تقول لها :

ــ امس مساء في حوالي الثامنة وقع الحادث .. وقد نقل الى المستشفى على اثره ..

اما زوجتي الطيبة فقد كانت دمعة حزينة تنحدر على وجنتها الشاحبة، وكانت تمسك في يدها بتلك العلبة الثمينة والى جانبها وقف ولدي الصفير (منذر) يتطلع الى امه في دهشة وتساؤل ، ثم رأيته يشير الى العلبة ويسألها : ــ ماهذا يا اماه ؟

ومسحت زوجتي دمعة انحدرت الى وجنتها ثم اجابته بصوت حزين:

ــ انها هدية احضرها لي والدك امس ليلة العيد ...

دمشق — وليد قصاب

الى حالمة

باهتة العينين ! .. لا تحلمي — في صمت هذا الشفق المعتم
زورقنا المبهم ... مغمورة — ميناؤه .. في ابد مبهم
في ابد يركض ... لما يقف — لصيحة الدرب .. ولم يلجم

لا تكسري المجذاف .. في وجهه — اتنقمين منه ؟ .. لا تنقمي
دعيه للرمل ... فما همنا ؟ — غدا لنا .. زوارق الموسم
يحملنا الطيب .. الى داره — ونترك العلقم .. للعلقم
غدا على السفح .. شعاع الضحى — يغمرنا بوحيه الملهم
وتكتفي .. لا شيء غير المدى — والشمس .. والاوراق .. والمرقم

مصفرة الاجفان ! .. لا تدمعي — لرؤية الليل .. وتستسلمي
هاك يدي ـ هاتي يديك ـ اتركي — المجذاف .. في اغمائه المؤلم
نعبر فوق الريح .. للمنتهى — فوق الدجى والريح .. للانجم

غيبية الحلم !.. انا مارد — فكري .. فكري قمقمي

ادوار الزغبي



حديث عيسى بن هشام

تأليف محمد المويلحي ـ ؟ صفحة ـ مطبعة (؟)

من هو محمد المويلحي؟ مؤلف حديث عيسى بن هشام هو محمدالمويلحي، ويجب ان لا نخلط بينه وبين أبيه ابراهيم المويلحي .ويلتقي الاثنان : الوالد والولد في أنهما اشتركا في تحرير جريدة « مصباح الشرق » التي انشأها الاب في اواخر القرن الماضي . وهي الجريدة الادبية السياسية التي كان لها حظ ظهور كتاب حديث عيسى بن هشام على هيئة فصول متتابعة . فقد كانت العادة حينذاك ان ينشر الادباء كتبهم مسلسلة في الصحف ، ثم يجمعوها بعد ذلك بين دفتي كتاب . ولم يكن هذا غريبا ولا عجيبا ، فقد نشر محمود طاهر حقي روايته « عذراء دنشواي » متتابعة في صحيفة ، ثم نشرها مستقلة بعد ذلك ، وكذلك فعل اكثر الكتاب في ذلك العهد ، بل ان ابرهيم المويلحي الوالد قد نشر كتابه « مرآة العالم ، أو حديث موسى بن عصام » متتابعا في « مرآة الشرق » .

ولقد كان محمد المويلحي من ابناء الذوات في لغة ذلك العصر ، فاسرته عربية بارزة ظهرت في ميادين التجارة والسياسة والادب ، وقد كان عبد السلام المويلحي احد افرادها ، من دعائم الحياة النيابية في مصر ، وان كانوا جميعا يستظلون بظل الاسرة التي حكمت البلاد ، فقد كان الجد الاعلى لمحمد المويلحي كاتب سر لمحمد علي ، كما كان في ذلك الوقت نفسه سر تجار القاهرة . وترجع نسبة هذه الاسرة الى مدينة « مويلح » ، وهي أحد الثغور الواقعة على البحر الاحمر في شبه جزيرة العرب ، وكان مقامها في الاصل هناك ، وفي عهد محمد علي وفد جدها الاعلى الى مصر ، وزاول فيها التجارة على مقياس واسع ، وساعده الحظ ، فجمع من التجارة ثروة طائلة ، واتصل بولاة مصر ، وكان هو واولاده من المقربين اليهم .

وعلى الرغم من هذه النشأة الميسورة فقد كان لكثير من افراد هذا البيت نزعة شديدة الى الاصلاح والعدل ، وحكم البلاد على اسس سليمة خالية من التسلطية والاستبداد . ولهذا ما كادت الثورة العرابية تشب نارها حتى رأينا المويلحي الاب يشترك فيها ، فلما اخفقت بما فعلته فيها الخيانة ـ عزل من وظيفته مع من عزلوا من مناصبهم ، وآثر الهجرة الى أوروبا ، ولحق به ولده محمد ـ مؤلف عيسى بن هشام ـ بعد ثلاث سنوات . والتقى الاب والابن في الاستانة حيث كانا من المقاومين للعهد الحميدي الذي اشتهر بالفساد والرشوة وكبت الحريات.

ولقد تقلبت بمحمد المويلحي أحوال كثيرة ، ما بين رفع وخفض ، وجدة وحرمان ، وتقريب وتبعيد ، ولكنه مع ذلك ظل صابرا عالي النفس مترفعا ، لا يشكو حوادث الزمان ، ولا يتبرم اذا ما عثر جده ، او فل حده ، وظل على ذلك حتى لاقى ربه عام ١٩٣٠ ، فاشترك كبار الشعراء والادباء في تأبينه . وما زلنا نذكر مرثيه شاعر النيل : حافظ ابراهيم له التي يقول في مطلعها :

دمعة من دموع عهد الشباب	كنت خبأتها ليوم المصاب
لبت اليوم يا محمد لما	راعني نعي أكتب الكتاب

اما الشاعر شوقي فقد رثاه بقصيدة اشار في اكثر ابياتها الى منزلته في البيان قائلا في مطلعها :

كاتب محسن البيان صناعه	استخف العقول حينا يراعه

تقليد حميد : ما تكاد تفتح الصفحات الاولى من حديث عيسى بن هشام حتى ترى رسالة خطية مطبوعة بالزنكوغراف أو « الاوفست » بعث بها حكيم الشرق والاسلام السيد جمال الدين الافغاني الى محمدالمويلحي بشجعه على استكمال فضائل النفس بالسعي نحو الحق ، والبعد عن غرور الباطل ، وتجنب اهواء النفس ، والمضي في طريق الفضيلة حتى نهاية الشوط ، لو كان لطريق الفضائل نهاية ... وهي رسالة تمثل ادب الرسائل الخاصة في الادب العربي ، فنحن نعرف رسائل من هذا النوع للامام علي ، وللبديع ، والخوارزمي ، والصابي ، والقاضي الفاضل ، وابن العميد وغيرهم في القديم ، كما نعرف رسائل خاصة لعبدالله فكري ، وابراهيم اليازجي ، والشيخ محمد عبده وغيرهم في الحديث . وقد يقال ان الرسائل الخاصة لم توضع للنشر ، ولم ترسل للتداول ، ولكن الحق انها واجبة النشر اذا كانت تنطوي على فضيلة ، فانها حينئذ تكون كالنور يهتدى به . وقد حرص محمد المويلحي على نشرها مصورة بخط كاتبها الامام ، ثم اشار اليها في المقدمة قائلا : « واهدي هذه الرسالة ، التي اختصني بها المرحوم الاستاذ جمال الدين الافغاني بخطه الكريم منذ خمس عشرة سنة ، الى جماعة اهل الفضل والادب ، لما تضمنته من الحث على طلب العلم وادب النفس ، ولحسن اسلوبها في كتب المودات ، وهي لا تزال عندي اماما يهديني ، ونورا استضيء به ، فاردت ان اشاركهم في هذه الذخيرة التي يحق الضن بها ، والحرص عليها ، ونقلتها هنا بصورة خطه الشريف ، تخليدا لاثر تلك اليد الكريمة » . ولا يتسع المجال هنا لنشر رسالة الامام جمال الدين كلها كاملة ، ولكنا نجتزىء منها بهذه الاسطر : « ولا تكن كالذين غرتهم انفسهم بباطل أهوائها ، وساقتهم الظنون الى مهواة شقائها ، وحسبوا انهم يحسنون صنعا ، ويصلحون امرا . وكن عونا للحق ولو على نفسك ، ولا تقف في سيرك الى الفضائل عند عجبك . لا نهاية للفضيلة ، ولا حد للكمال ، ولا موقف للعرفان ، وانت بغريزتك السامية اولى بها من غيرك والسلام » .

على طريقة المقامات : حديث عيسى بن هشام هو الكتاب الحديث في القرن التاسع عشر واوائل العشرين الذي كتبه صاحبه على طريقة المقامات القديمة : مقامات الحريري ، ومقامات بديع الزمان الهمزاني ، ومقامات الزمخشري وامثالها . وعلى الرغم من كتابةهذا الكتابعلىطريقة كتابية قديمة ، فان الكتاب يعد فتحا جديدا في الادب الروائي القصصي في العصر الحديث . فقد كان من المحاولات الاولى للكتابة القصصية المحدثة . وقد بلغ من اعجاب الاستاذ علي ادهم ـ كاتب المقدمة لهذه الطبعة الجديدة في مشروع المكتبة العربية ـ ان عده « الرائد الاول » للروائيين المصريين الذين جاءوا بعده ... وهو تحمس من أديبنا الناقد لا يوافقه عليه من أرخوا للقصة العربية في العصر الحديث . واذا كان حديث عيسى بن هشام صورة حية للمجتمع المصري وللجوانب المصرية في القرن الماضي الذي طوى كثير من معالم حياته ، واحل الزمانمحلها صورا جديدة ، فانه يشتمل على عنصر روائي بما اضفاه المؤلف على الواقع من خيال ، حتى لقد خلق شخصيات خاصة ، واضفى عليها الحياة ، وجعلها تدور على مسرح الحياة بكثير من الحوادث التي تشبه القصة وهي صور ناطقة من المجتمع ... ومن هنا جاز لبعض الادباء ان يعدوا الكتاب اول محاولة في الرواية المصرية . على ان المنصفين من النقاد لا يغمطون فضل محمد المويلحي في بذر البذرة الاولىللقصص

خلال تصوير المجتمع ، ولكنهم يذهبون الى ان محاولة المويلحي هــذه لا تدخله في حظيرة الروائيين التي تبدأ فيها اسماء طاهر حقي ،ومحمد تيمور ، وشحاتة عبيد ، وعيسى عبيد ، والدكتور محمد حسين هيكل ، ومحمــود تيمــور ...

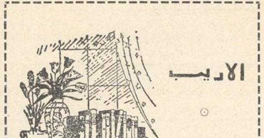
واذا كان محمد المويلحي قد سلك في حديث عيسى بن هشام طريق المقامات من حيث الاسلوب وطريقة الكتابة ،والسجع ، الا انه كــان مجددا في الموضوع نفسه ..فلم يحاول محاولة اصحاب المقامات مـن حشو كتابه برصيد من الالفاظ العربية المعجمية تبيانا للقدرة ، وعرضا لحفظ كثير من الفاظ اللغة ومفرداتها ... ولم يلجأ مثلا الى احـدى طرق اللعب بالكتابة ، من التعبير مثلا بجمل تخلو حروفها من حروف الاعجام ، او جمل كل حروفها من حروف الاعجام ـ أي الحــروف المنقوطة . ولم يلجأ مثلا ـ كما لجأ الحريري في براعة فائقة الى صناعة وتلاعب بالالفاظ ، كالعبارات التي تقرأ طردا وعكسها : أي تقرؤها من اول حروفها كما تقرؤها من اخر حروفها تماما : كهذا البيت التالي :

مودته تدوم لكل هول   وهل كل مودته تــدوم ؟!

فاقرأ هذا البيت من اوله ، او اقرأه من اخره فان العبارة لا تتغير حرفا واحدا : لا ! لم يفعل محمد المويلحي شيئا من هذا وامثاله ، مما جعل من مقامات القدماء معجما حافلا لمفردات اللغة وبدائع التعبير واللعب اللفظي ، ولكنه قصد في كتابه الى هدف اجتماعي فني رمـى اليه ، وهو تصوير مجتمع عصره تصويرا بارعا ملونا بالوان محليـة خفيفة الظل ، مع معالجة المشكلات والعادات بطريقة قصصية مشوقـة تجعل النفس تقبل على قراءتها ، وتتعجل معرفة ما وراءها .

وللمصلحين في الاصلاح والاخذ بيد الامة ونقد المرذول من عاداتهـا طرائق مختلفة ، فمنهم من يلجأ الى الوعظ عن طريق الدين ، ومنهـم من يلجأ الى الشعر يرسله واعظا حكيما اذا كان يستطيع ان يقــول الشعر ، ومنهم من يلجأ الى المقال التحليلي يعالج المشكلة معالجـة الطبيب ، ويحللها تحليل الفيلسوف ، ويخرج من المقدمات الى نتـائج سليمة لعلها تصادف هوى في افئدة القراء ... ومنهم من يتخذ طريق الحكاية والخيال حتى لا يكون ثقيلا بالنقد المباشر . ومن هذا الفريـق الاخير كان محمد المويلحي الذي لا نشك مطلقا في انه كان رجلا يحب الخير لامته ، والاصلاح لوطنه ، وقد رأى فيه الفساد منتشرا ، والشر فاشيا ، فحاول ان يسهم في اصلاحه على طريقته ...

طلب الوظائف في ذلك العهد : يصور لنا المويلحي كثيرا من غرائب الحياة فــي مصر القرن التاسع عشر ، حيث خرج من القبور رجل كان دفينا في ظلام الرمس ، اسمه « أحمد المنيكلي باشا » ، وقد جعلـه المؤلف ناظرا للجهادية المصرية ايام محمد علي . ويفتح هذا الدفيـن عينيه على مصر اخر القرن التاسع عشر واوائل العشرين ، فيـرى الحياة غير الحياة ، والناس غير الناس ! ثم يخلق له المؤلف شخصية عيسى بن هشام ليكون مرافقه فيما يمر به من احداث بعضها مؤسـف غاية الاسف ، وبعضها مضحك غاية الضحك ، ولكنها جميعا ـ بيـن عوامل الاسف والضحك ـ تصور لنا مجتمعا مصريا جديدا لم يكـن للباشا المدفون المنشور من القبر :. عهد .. وهي صورة على كل حـال تصور لنا في براعة وخفة نواحي كثيرة جدا من مصر الماضية يـود المصريون المعاصرون لو انهم عرفوها على حقيقتها .. فقد كانت الوظائف مثلا تطلب اكثر ما تطلب للمال والجاه والمشغلة ... اما خدمة الوطـن فلم تكن تخطر لانسان على بال...ويصور لنا المويلحي طلاب المال والجاه بقوله على لسان احد اشخاص الكتاب : « تنقسم الرغبة في خدمـة الحكومة الى اربعة اقسام : القسم الاول : الرغبة فيها للمال ، اعني لسد العوز وكفاف العيش . وصاحب هذا القسم يكون في حال المضطر الذي حكم عليه الدهر باحتمال الهوان لضرورة الرزق ... والقســم الثاني : الرغبة فيها للجاه ، اعني عزة المنصب ، ونفوذ الكلمة ، ومضاء الحكم . وهو ميدان بعيد الشأو واسع الاطراف ، ليس لشوطه نهاية ،



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العــادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

●

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي

٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي

٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى

فــي الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنـى

●

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابهـا سواء نشرت ام لـم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلـة

●

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ المنزل ٢٢٥١٣٩

Tel : Dir : 223819 Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

●

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول

البيـر اديب

ولا لحدوده غاية ، ولا بد للجواد فيه من كبوة ، وللسيف من نبوة طالما كان اعتلاء المناصب ، وارتقاء المراتب ، داعية للرزايا والمصائب ، ومجلبة للبلايا والنوائب ... ولو سلمنا ان صاحب المنصب سلم من المعاطب ، ونجا من الخطوب ، فهو لا يزال طول حياته في هم ونصب ، كلما ارتقى في المنصب درجة ، وجد فوقها درجة اخرى ، يحسدمن يليها ، ويحقد على من يعتليها ، ولا يفتأ مستعظما لما فوقه ، طامعا فيه ، مستصغرا لما في يده ، راغبا عنه ، فهو في ذهول دائم عن التمتع بلذة الحياة التي يجري وراءها ، غير راض عن نفسه ، ولا الناس عنه راضون ...»

وقد صور لنا المويلحي كثيرا من موظفي ذلك العهد : منهم « صول القسم » الذي دخل عليه البطلان « فوجدناه ياكل والقلم في اذنه ! وقد نزع طربوشه ، وخلع نعليه ، وحل ازرار ثيابه ، وبجانبه اثنان من الفلاحين ، اظنهما من اقربائه ، يشاهدان ما يتمتع به من لذة الامر والنهي ، وسعة سلطانه على الكبير والصغير في عاصمة القطر ، وقاعدة الملك ، وما في قدرته من حبس اي شخص كائنا من كان ، وشهادته عليه بما يجري في دعواه ... » ومنهم وكيل النيابة الذي تشاغل في حديث مع ضيفين له عن القضايا التي امامه ، وظل الثلاثة يديرون حديثا تافها حول « مدموازيل » فلانة المغنية ، وفلان المقامر ، وفلان العاشق الذي تزوج معشوقته ، وفلان الذي اشترى اوتومبيلا جديدا ، وفلان الشاب الذي انتحر لا فشلا في الغرام ، ولا اخفاقا في المال ، ولا يأسا من مرض ، ولكنه فعلها تقليدا لشبان باريس ... ومنهم « كاتب الدفترخانة الشرعية » الذي احتاج الباشا الخارج من القبر الى بعض اوراق الوقف من عنده ، فلقي من رقاعته وبراعته في ابتزاز الاموال ما اتقن المؤلف تصويره ، وادق تلوينه .

المحامون وسماسرتهم : لقد اضطر الباشا المبعوث من قبره الى دخول المحاكم ـ وهي لم تكن في عهده ـ لعدة مخالفات ارتكبها ، واتهم اتهم بها ، فقد اتهم ـ باطلا ـ بالاعتداء على مكار « حمار » صفيق ملح في الطلب ، كما اتهم ـ زورا ـ بالتعدي على واحد من رجال البوليس اثناء تاديته وظيفته ... وكان لا بد للمسكين من محام يتولى الدفاع عنه . وقد اوقعه سوء الحظ في سمسار جشع لاحد المحامين ، أوهمه ان المحامي يدير القضاء في يده بما يريد ، فيثبت التهمة على من يشاء ، ويبرىء من يشاء ، وانه ـ يعني السمسار ـ يعرف له صاحبا محاميا معروفا بين طائفته بالصدق والامانة ، وبين القضاة والمستشارين بسمو المقام ... ويطلب السمسار من الباشا ان يدفع ما يستطيع دفعه من مقدم الاتعاب ، حتى ينتهي الامر الى تبرئته والى الخلاص من تهمته ... وهنا يمر المحامي المقصود امام الاثنين كالبرق ، فيتقدم اليه السمسار على هيئة المتوسل الراجي ان يقبل الدفاع عن الباشا ..وهنا يعتذر المحامي بأن الاعمال عنده متراكمة ، والقضايا متزاحمة ، فلا يستطيع ان يتولى قضية الباشا ، وهو غارق في القضايا الى اذنيه ، الى درجة تجعله مهملا امر طعامه وشرابه...! ويتوسل اليه السمسار بحق الانسانية ، وحرمة المروءة ، وبما فطره الله عليه من نصرة الضعيف وعون المظلوم ، فيتفضل المحامي ويتنازل بالقبول... ! ويدور بعد ذلك حوار بين السمسار وبين صاحبنا « المنيكلي باشا » على هذا المنوال :

ـ السمسار « للباشا » : هلم فادفع عشرين جنيها !

ـ الباشا : ليس عندي الان شيء من الدراهم !

ـ السمسار : أعطني تحويلا !

ـ الباشا : انا لا افهم لك كلاما ، فاذهب عني فقد ضقت بك ذرعا !

ـ السمسار : كيف أذهب عنك ، وقد تم لك الاتفاق مع حضرة المحامي امامي ؟

ـ الباشا : انا لم اتفق مع احد ، فاتركني وانصرف .

ـ السمسار : كيف تنكر اتفاقك مع المحامي بعد ان وضعت يدك في يده؟! وما ابرع محمد المويلحي في تصوير السمسار هنا وتصوير تمثيله على الباشا ، وايهامه اياه بأن المحامي مشغول ـ مع انه عاطل عن القضايا ... وما أبرعه ايضا وهو يجعل من مصافحة الباشا للمحامي اتفاقا على عقد الصفقة !!

صورة لكتبة المحاكم الشرعية : ولقد كان محمد المويلحي دقيقا قوي الملاحظة في كل صورة من الحياة المصرية تناولها بالوصف في ذلك العهد .. وهي مقدرة لا تتاح الا لكاتب موهوب ، وناقد مرموق . وما أبدع هذه اللوحة الطريفة التي رسمها المؤلف ـ او رواية عيسى بن هشام ـ لكتبة المحاكم الشرعية في اواخر القرن الماضي . يقول الراوي : « وسرحت طرفي في بقية الانحاء ، فرأيت الكتبة كلهم يتفاكهون ويتسامرون : هذا يلت في يده افيونه ، وذاك يكور بين اصابعه معجونه ، والقلمان مشتغلون تارة باوراقهم ، وطورا يتباحثون في اذواقهم ، وارباب الحاجات بين ايديهم يقاسون سوء الرد ، ومطل الوعد . وسمعت احد الكتبة يخاطب صاحب قضية ، بالفاظ بذيئة ، ويقول له : كيف تعطي الفلام هذا المبلغ الزهيد ؟ اتظنه كان لك من العبيد ؟ أتريد ان يكتب لك ويتعب ، وهو لا أجرة له في المحكمة ولا مرتب ، بغير ربح ولا مكسب ؟ ان هذا لمن اعجب العجب ! وجاء رسول القاضي يطلب احد الكتبة الرؤساء ، فوجده راقدا كالنفساء ، فبعضهم اشار بتنبيهه من غفلته ، وقال بعضهم : لا بل اتركوه في رقدته ، انسيتم حكم عادته ، بانه لا يفيق من غفوته ، قبل ان يسيل الافيون مع الدمع في دورته ... »

صحافة ذلك العهد : ولم تسلم صحافة اخريات القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين من نقدات محمد المويلحي ومن تصويره لها على حقيقة امرها ، وتفاهة شانها ... نعم ! كان هناك صحف محترمة بعيدة عن الهبوط الى مستوى الملق الرخيص ، والتزلف الدنيء ، ومصانعة الحكام ومعاونتهم على الفساد ، ونشر الاخبار الرخيصة التافهة التي تدور حول همة سعادة المدير ، ونشاط سيادة المأمور ، ويقظة حضرة العمدة ... ولقد عرض المؤلف ـ على سبيل التمثيل ـ نماذج لهذا الكلام الرخيص ، كالذي جاء في جريدة لذلك العهد من مكاتبها في الزقازيق ، قائلا : يثني العموم بلسان واحد على حضرة مامور البندر لاهتمامه بالكنس والرش ..! وكالذي جاء في صحيفة اخرى من ان « سعادة العضو الوطني في السكة الحديدية يسافر الى الاسكندرية في هذا المساء ، ويحضر سعادة مدير البوستة الى العاصمة على اكسبريس الصباح ..! » واشباه هذا الهراء الذي ليس من الصحافة المحترمة في شيء ، وانما هو تملق الى الرؤساء ، وتصاغر الى الكبراء ، واهتمام بالاشخاص ، وعبادة للذوات ، مما لا تزال منه رواسب نرجو الله ان نخلص منها جملة لنفرغ الى الجد في حياتنا ، والى تقدير الاعمال ، لا عبادة الابطال ...

وصف فرح انتهى بخناقة : ولقد ابدع المويلحي في وصف ليلة عرس لاحد ابناء البلد ممن اجتمع في يدهم المال ... فصنع وليمة عرس وليلة زفاف على غرار اهل المدينة المقلدة ، ووصف لنا الزفة ، والمادبة والرقص ، والغناء ، وألوان المدعوين والوافدين على « الفرح » من اصليين ومتطفلين ... ثم انتهى كل ذلك بمشاجرة بين الاصحاب ، تقاذفوا فيها الشتائم والسباب ، ثم انتقلوا بعد ذلك الى التضارب والتلاكم ، وانتهى الامر الى تدخل البوليس ، ولولا لطف الله لما سلم من المعركة العروس والعريس ... !

القاهرة — محمد عبد الغني حسن

•

منزل الافنان

مجموعة شعرية ـ لبدر شاكر السياب ـ ؟ صفحة ـ مطبعة (؟)

عاش قلبا ينبض بالحياة يتحدى آلام المرض فتغنى بالشعر حتى الرمق

الاخير ليتنفس عن عذابه .. فكسى كلماته بغلالة من احساساته وسقاها بعصارة تجاربه ليقدمها للناس جميعا خيرا وحقا وجمالا .

لقد ذابت آلامه في تراب أرضه المقدسة التي نشأ عليها .. وكم تغنى بها وحدث الناس عنها ، ودعاهم الى ان يمنحوها الحب ، وان يحرسوها ويحموا كيانها . والسياب في رحلة عمره التي اقتطعت من عمر الزمن اربعين عاما سليما معافى ثم مريضا طريح الفراش ترك عدة دواوين : « ازهار ذابلة » و « اساطير » ، و « ملحمة حفار القبور » و « الاسلحة والاطفال » و « انشودة مطر » و « منزل الافنان » ، و « المعبد الغريق » .. وهذه الدواوين تمثل مراحل تطوره الفنية والفكرية التي مر بها .. كما انها مرآة تعكس مشاعره واحاسيسه بكل صدق وعمق .

فالسياب بدأ حياته الفنية شاعرا رومانتيكيا في « أزهار ذابلة » ثم رومانتيكيا رمزيا في مجموعة « اساطير » و « ملحمة حفار القبور » ورمزيا واقعيا في « الاسلحة والاطفال » . وانتهى اخيرا الى الشعر الواقعي التصويري .

والشاعر عاش واقع بلاده المرير الذي تقلبت فيه سنين طويلة من احضان ظلم الحكام والاستعمار .. وكان لمأساة فلسطين التي نكب بها اخواننا العرب اثر عميق في نفسه .

وهو لم يكن بعيدا عن هذه الاحداث التي تولد في وطنه بين لحظة واخرى بل شارك فيها وتعاطف معها وذابت مشاعره في مشاعرالجماهير العربية التي اثخنتها جراح الظلم والاستعباد .. وراحت تبحث عن وسيلة للخلاص من هذا العبء الثقيل .

ولقد اخرج السياب ديوان « منزل الافنان » وهو يمثل مرحلة من مراحل تطوره الفنية الاخيرة ، ويمتاز عن سابقه من الدواوين بأن قصائده الثماني والعشرين التي يتضمنها نظمت جميعا في الفترة التي كان يعاني فيها آلام المرض وتزحف عليه النهاية ، فنلمس في هذه القصائد الاحساس المأساوي .. فهي اغان يغنيها انسان يشعر بالحياة تتسرب منه رغما عنه فهو يحبها ويريد ان يعيش من اجل زوجته وولده غيلان ويود ان يوقف تسربها ولكنه لا يستطيع ان يرد قضاء الله وقدره فلا يملك الا الصبر كما صبر ايوب على بلواه حتى شفاه الله :

لك الحمد مهما استطال البلاء
ومهما استبد الالم
لك الحمد ، ان الرزايا عطاء
وان المصيبات بعض الكرم
ألم تعطني انت هذا الظلام
وأعطيتني أنت هذا السحر ؟
فهل تشكر الارض قطر المطر
وتغضب ان لم يجدها الغمام ؟
شهور طوال وهذي الجراح
تمزق جنبي مثل المدى
ولا يهدأ الداء عند الصباح
ولا يمسح الليل أوجاعه بالردى
ولكن أيوب ان صاح صاح :
لك الحمد ، ان الرزايا ندى

في الواقع اننا لا نحس في هذه القصائد بتشاؤم .. بل نحس فيها بنبضاته حية وبدمائه تتدفق في كل سطر حارة تحمل حبه لوطنه الكبير ولبيته في جيكور حيث زوجته وولده غيلان ، تحمل كل ذكريات الماضي كما انه يعطي تجاربه الحياتية لبني بلده .. ففي قصيدة « وصية من محتضر » يوصيهم بحب بلدهم والتضحية من اجله والا يكفروا بنعمه ، وعليهم ان يتمتعوا بشمسه المشرقة وسمائه الصافية ، وخضرته الناضرة ، ومائه الرقراق .. ويقول لهم ان ما يخبرهم به ما هو الا رؤية انسان ميت والميتون لا يكذبون :

يا اخوتي المتناثرين من الجنوب الى الشمال
بين المقابر والسهول وبين عالية الجبال
ابناء شعبي في قراه وفي مدائنه الحبيبة
لا تكفروا نعم العراق
خير البلاد سكنتموها بين خضراء وماء
الشمس من نور الله ، تغمرها بصيف وشتاء
لا تبتغوا عنها سواها
هي جنة فحذار من أفعى تدب على ثراها
أنا ميت ، لا يكذب الموتى ، وأكفر بالمعاني

وليس الحديث عن مظاهر جمال العراق وخيرها الكثير وبيان فضلها ونصيحة اخوته العراقيين بالتفاني في حبها مقصورا على هاتين القصيدتين ولكن تتكرر هذه المعاني في معظم قصائد الديوان والسبب في شيوع هذه الروح هو ان السياب قضى فترة بعيدا عن وطنه في لندن للاستشفاء رفيق الوحدة ، رهين الفراش ، ما يحس ببطء الزمن وثقله على كتفيه .

وكما تغنى بوطنه وعبر عن شوقه وحنينه اليه تحدث ايضا عن بيته في جيكور حيث زوجته وولده ينتظران عودته ويقضيان الليل يتسمعان وقع اقدامه وينصتان الى دقات اصابعه على الباب والمصباح ساهر معهما ينفث آلامه ، وينتظر عودة صاحب البيت في شوق ولهفة ..

وينقضي الليل .. ولا يعود ، ويذوب الامل ويستسلم الصغير للنوم ولكن يبقى هو في لندن مسهدا يأكله الشوق الى العراق وتقبيل صغيره والتمتع بمداعباته .

من هذا نرى ان السمة الغالبة على الديوان هي الشوق والحنين الى وطنه العراق وبيته الصغير في جيكور نلاحظ ان حبه لوطنه قد ملك عليه احاسيسه الامر الذي جعله يكثر الحديث عنه ويقدمه على زوجته وولده لانه يعرف ان بيته ما هو الا جزء من الوطن الكبير الذي يعترف بفضله .. ويقرر ان امنيته الوحيدة هي ان يعود الى وطنه ليقبل ثراه ويعانق كل نبتة صغيرة فيه ، ويعيش في كوخ صغير وسط الحقول . وعلى الرغم من ان السياب كان يعرف بنهايته الحتمية فاننا نجده شجاعا .. لم تضعف روحه امام الموت ، ولم تهن ، بل كان يستمد من مأساته طاقات شاعرية كانت تتدفق منه تصارع الموت وتذيب آلامه واحزانه ..

لقد أحب السياب الحياة ولكنه زهدها وعافت نفسه كل شيء ، لانه يحس ان حباله تتقطع الواحد تلو الاخر .. لقد تبلورت كل امانيه في العودة الى وطنه ورؤيته ابنه وزوجته .. انه لا يريد من الحياة الا كوخا صغيرا وسط الحقول يقضي فيه أيامه الاخيرة في هدوء انه يريد ان يذهب الى الموت بلا ضجة وبلا تألم . ففي « نداء الموت » يقول :

جراحي بقلبك او مقلتيك ولا تحرفن الخطى عن طريقي
ولا شيء الا الى الموت يدعو ويصرخ ، فيما يزول
خريف ، شتاء ، أصيل ، أفول
وباق هو الليل بعد انطفاء البروق
وباق هو الموت ، أبقى وأخلد من كل ما في الحياة
فيا قبرها افتح ذراعيك
اني لآت بلا ضجة ، دون آه !

وفي قصيدة « الشاهدة » يطلب من بني وطنه ان يذكروه دائما عندما يمرون بقبره والا يقلقونه ويدعونه في وحدته تؤنسه الديدان ، وأن يقرأوا شعره دائما وان يتذكروا « جيكور » مسقط رأسه القافية تحت غصون النور تحلم بالسحاب .

ان يكن السياب قد رحل عنا فانه ترك شعره الذي يحمل روحه ويذكرنا به وبأنفاسه الحرى .. فالذكرى للانسان عمر ثاني :

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالذكر للانسان عمر ثاني

والسياب بما تركه من انتاج شعري قد رفع ذكره وخلد اسمه ولا سيما ديوان « منزل الافنان » الذي وضع فيه الكلمات الاخيرة في قصة حياته ممزوجة بأحاسيسه ومشاعره الصادقة النابعة من قلبه وما خرج من القلب يصل الى القلب .. لقد اعطى الناس جميعا الحب والامل ولم يطلب منهم الا ان يتركوه في هدوء وسلام وان يقرأوا شعره .. فهلا قرأنا شعره تنفيذا لوصيته .

القاهرة **ابراهيم عيسوي سعفان**

•

مباحث في الادب الشعبي

تأليف عامر رشيد السامرائي ـ ١٥٧ صفحة ـ منشورات وزارة الثقافة والارشاد ـ بغداد ـ المطبعة (؟)

شيء يبعث الارتياح في النفس هذا الاهتمام المتزايد بالفنون الشعبية (الفولكلور) ، الذي ابداه بعض الادباء والباحثين في الاونة الاخيرة . فقد استقطب هذا المجال عددا من الدراسات التي أسهمت اسهاما كبيرا في الكشف عن الوجه الاصيل للادب الشعبي .

وهذه المحاولات التي تجري اليوم في تسجيل التراث الشعبي ، والبحث في مجالاته الكثيرة ، هي في واقعها محاولات هادفة ، تتوخى ايجاد حلقة اتصال بين « ادب الريف » وذوق المثقف العربي . وقد اتبع الباحثون في ذلك وسيلة تقريب مفاهيم هذا الادب الى ذهنية ابن المدينة ، الذي هو غالبا ما يعيش بعيدا عن الريف ، وعاداته وادبه... وفي هذا ، امر ييسر للقراء والباحثين الاطلاع على جانب من جوانب حياتنا الادبية في الريف العراقي ، قد يكون مجهولا بالنسبة لاكثرهم .

وأنا ارى ان الادب الشعبي مهم ، وحري بالدراسات الواعية التي تقيمه على اساس موضوعي سليم ... فهو أدب قطاع كبير لا يستهان به في مجتمعنا . اضافة الى ذلك ، فاننا نجد في المدن ، وبين طبقات المثقفين من يعنى بهذا اللون الادبي ، ويتغنى به ، او ينظم فيه . ولا تضيره في شيء لغته « العامية » التي هي لغة هذه الطبقات المغمورة اجتماعيا .. فهو ادب صادق ، أصيل التجربة في غالبه ، يستمد ابعاده من ذات ذلك الانسان الذي تعيش البساطة في قلبه وروحه ، ومن واقع حياته العام ... فيه حيوية وتدفق ، وومضات فنية مشرقة ، ومعان سامية .

فهو أدب واقعي ، و « الادب الواقعي ـ كما يقول الدكتور محمد مندور ـ هو الذي يستهدف تصوير حقائق الواقع . وليست اللغة الا وسيلة للتعبير ، والاديب يختار الوسيلة الاكثر اسعافا في صدق هذا التصوير . »

ومن بين المنشورات التي طالعتنا مؤخرا في هذا المجال ، كتاب الاستاذ عامر رشيد السامرائي « مباحث في الادب الشعبي » .

يتناول الكتاب بالدراسة والتحليل الشعر الشعبي ، مركزا بصورة كلية على مواضيعه العامة ، كالغزل ، والرثاء ، والهجاء ... الخ ، ملقيا نظرة على صفاته ، مبينا مميزاته ...

يقول المؤلف ، بأن الادب الشعبي ما هو الا تعبير « عن انفعال عاطفي او فكري ، يتخذ اللهجة العامية اسلوبا في التعبير ، تطفى على معانيه السذاجة التي يتميز بها ابن الشعب المحروم من الثقافة ، ولكنها سذاجة لا تخلو من ارهاف الحس ، وبراءة وعفوية في اطلاق المشاعر والاحاسيس ، وصدق في استعمال الالفاظ والاساليب واختيارها . » (ص ١٥ ـ ١٦) .

وهو في هذا انما يبين لنا اهمية دراسة ادبنا الشعبي ، وضرورة العناية به ، وتسجيله ، ويقر بأنه مخاض تجربة حياتية ، ووثيقة وجدانية تعرفنا بنفسية انسان الريف ، وحياته ، وتجاربه ، مهما تحمل تلك التجارب من سذاجة ، فهي صورة امينة لواقع يحياه ، وانعكاس كلي وواضح لنفسيته التي تركت البيئة فيها اثرا ملموسا ... فهو الوسيلة التي يعبر بواسطتها عن كل ما يدخل نفسه من احاسيس ومشاعر ، اولا .. و « ظاهرة فكرية واجتماعية .. ودراسة تلك الظاهرة بامعان وتعمق تعين على تفهم احوال المجتمع ومعرفة نفسيته والتيارات المؤثرة فيه » . (ص ٩١) .

لي ملاحظات على الكتاب ، اود تسجيلها هنا :

١ ـ انه لم يحاول تحديد ظهور هذا النوع من الادب ، علما بأن الموضوع لا زال موضع أخذ ورد بين الكثيرين ... فهو جدير بالاهتمام ، على ما أرى .

٢ ـ لم يتناول في كتابه فنون الشعر الشعبي المعروفة في العراق ، فيدرسها أو يحاول اعطاء فكرة عنها ، لتعميم الفائدة .

٣ ـ لم يهتم المؤلف الفاضل بشرح كلمات الابيات التي وردت في النصوص التي أثبتها كشواهد في البحث ، علما بأن شرحها في هامش الصفحة امر على جانب كبير من الاهمية ، فربما تشكل معانيها على اكثر القراء .

الا ان هذه الملاحظات لا تغض من قيمة الكتاب ، فهو ، كما ارى ، أول دراسة من نوعها عن أدبنا الشعبي في العراق ، استطاع المؤلف فيها ان يرصد ابعادا جديدا في البحث بهذا المضمار ، معتمدا في ذلك على التتبع وتقصي الحقائق ، والتحليل النقدي ، في بعض الاحيان ، وفق المنهج الاستقرائي في البحث ، والذي يعتمد على جمع المعلومات والحقائق ، وتصنيفها ، والاستنتاج منها ، واطلاق احكامه على ضوئها .

ولعل هذه الدراسة ، والدراسات التي ستعقبها معتمدة مثل هذا المنهج السليم ، هي وحدها التي ستبلور المفاهيم السائدة عن « الادب الشعبي » ، وتلقي اضواء جديدة عليه . آملين ان نرى شيئا اكثر من هذا في المستقبل ، خصوصا دراسة ما يتصل بالنواحي الجماليةوالفنية في الشعر الشعبي .

ولا تفوتنا هنا الاشارة الى النصوص التي الحقها المؤلف بكتابه ، فهي على جانب كبير من الاهمية ، لانها نماذج عالية ، ولما أضافه اليها من شروح وتفصيلات وافية ، أوضح بواسطتها معانيها ومدلولاتها .

العراق ـ سامراء **ماجد صالح السامرائي**

في كلمات...

● اكتشف الدكتور جورج يونج استاذ التشريح باحدى جامعات لندن ، ان خلايا المخ ليست كلها من نوع واحد كما كان شائعا حتى الان . وانما بينها نوع اخر من الخلايا يقوم بافراز مادة توقف الاشارات التي تنعكس في خلايا المخ اذا كان من شأن هذه الاشارات ان تدفع الجسم الى عمل ما قد يعود عليه بالضرر. وقد اكتشف الدكتور يونج هذه النظرية خلال ابحاث اجراها على عدد من الاخطبوط ،ولكنه يرى ان نتائجها لا تقتصر على الاخطبوط فقط وانما تشمل جميع الحيوانات الاخرى بما فيها الانسان .

● ظهرت دلائل ملموسة على وجود ميل وراثي للاصابة بامراض انسداد الرئة . تبين من دراسة اجراها الطبيبان بن هول وكارلمان فاسرحان بجامعة ستانفورد على بعض العائلات ، وجود آثار كروموسومية ذات صفات تختلف عن الصفات العادية. رجح الطبيبان ان يؤدي هذا الاختلاف في حاملات العناصر الوراثية الى عدم بقاء انسجة الرئة في حالتها الطبيعية اذا تكرر جرح الرئة بعوامل مضايقة مثل التدخين وتلوث الهواء .

● اعلن اثنان من الاطباء الهولنديين انه ليس صحيحا ان الاشخاص الذين يدخنون عددا كبيرا من السجائر يعيشون بالضرورة فترات اقصر من اولئك الذين لا يدخنون اطلاقا . وقال الطبيبان ان الاشخاص الذين لا يدخنون يتعرضون لخطر قصر العمر اكثر من المدخنين لان الاحصاءات اظهرت ان غير المدخنين يكونون عادة اكثر سمنة .

وقد بنى الطبيبان الهولنديان هذا الرأي على اساس معلومات جمعت من ٢١٨٠. ضابطا وجنديا في الجيش الهولندي .

● اعلنت شركة سيبا لصنع العقاقير الطبية في لندن ان علماء سويسريين اكتشفوا عقارا لمعالجة البلهارسيا وهي مرض استوائي يعاني منه ملايين البشر . وكان وباء البلهارسيا الذي يعتبر احدى مشكلات الطب في العالم قد اكتشف لاول مرة في مصر . وهو ينتشر الان في اميركا الجنوبية والشرق الاقصى وجزر الهند الغربية ومنطقة البحيرات الكبرى في افريقيا الشرقية والوسطى . وذكر بيان لشركة سيبا ان علماءها في بال بسويسرا صنعوا عقارا يدعى امبيلهار يستطيع القضاء على الديدان التي تسبب المرض . وقالت الشركة ان هذا العقار الذي سيجري انتاجه في معمل للشركة في بريطانيا يقضي على جميع اثار المرض بعد تناول ٢١ حبة من هذا الدواء خلال اسبوع . ومن المعروف ان البلهارسيا هي الثانية في الانتشار بين الاوبئة بعد الملاريا ويقدر عدد المصابين بها بحوالي ٢٥٠ مليون شخص .

● دلت الابحاث على ان غاز اول اوكسيد الكربون واغلبه يخرج مع العادم من المداخن والمصانع ومحركات السيارات ، وهو مادة سامة ، قد زادت كميته بقدر ٥ بالمئة في الـ ٥٠ سنة الاخيرة . كما زادت كمية بخار الماء .. والاثنان سيعملان ايضا على زيادة حرارة الجو مستقبلا . وهناك اتجاه لدى الدول الصناعية للعمل على ايجاد حل لعدم زيادة المادة السامة في الجو .. لا خوفا من ارتفاع درجة الحرارة . ولكن اتقاء لضرر التسمم اذا ما زادت النسبة .

● افاد البروفسور هاس ، مدير معهد علم الصحة التابع لجامعة فرايبورج بالمانيا الاتحادية، في مؤتمر « يوم الكيمياء » الذي تم عقده بمدينة هانوفر بانه تم تركيب مصلين جديدين في المانيا الاتحادية لكي يستخدما ضد مرض الحصبة . ويستند المصل الاول منهما في تركيبه على جراثيم الفيروس الميتة ، ويستند المصل الثاني على جراثيم الفيروس الحية . ويكون بتركيب هذين المصلين الجديدين قد عمل على مكافحة مرض من اخطر امراض الاطفال الى جانب مرض شلل الاطفال الذي اصبح يمكن مكافحته مكافحة فعالة ايضا الان . كما قال البروفسور هاس بانه تم صنع مصل اخر يستخدم في مكافحة مرض التراخوم الذي يعتبر من اخطر امراض العيون الذي تقدر منظمة الصحة العالمية عدد المصابين به في العالم بخمسمائة مليون نسمة . وقد صار يستخدم هذا المصل في القارة الافريقية بصورة خاصة الان بسبب كثرة انتشار هذا المرض بين سكانها .

● قررت وزارة الصحة الامريكية اعطاء ٢٨٠ الف دولار منحة لجامعة كاليفورنيا الجنوبية لعمل « انسان صناعي » وهو نموذج للانسان العادي يعمل « بالاجهزة الحاسبة » ويكون بمثابة « المريض المثالي » لاجراء التجارب والتمارين الطبية عليه . وستبدو عليه جميع مظاهر الحياة من التنفس والنبض وخفق القلب ، كما سيتمكن من فتح عينيه واغلاقهما وتحريك انسانيهما وفتح فمه واخراج لسانه وتقطيب حاجبيه و « توتير » احباله الصوتية وتحريك عضلات الكتف والسعال وتغيير لون البشرة !

● اكتشف الدكتور اندريه ماسارت ، رئيس المصلحة الصحية في منظمة الاوراتوم دواء يشفي الحروق الناجمة من الاصابة بالاشعاعات النشيطة واسمه « كاليكراين » . والدواء هو عبارة عن مصل مستخلص من الغدد ويعرف منذ ثلاثين عاما . غير انه لم يقف على خواصه في التاثير على الحروق التي تحدثها الاشعاعات النشيطة قبل الدكتور ماسارت . وقد نجح الدكتور ماسارت بتجربة المصل للمرة الاولى لدى شاب من التكنيكيين الذي كان قد اصيب بحروق من الاشعاعات النشيطة وقطع الامل من شفائه . وتمت بعدها معالجة ١٠٣ حالات من حالات الحروق المسببة من الاشعاعات النشيطة بالكاليكران بعد ذلك ، وكان يعود اغلبها الى عدم ابداء الحذر اثناء استخدام المواد ذات الاشعاعات النشيطة ، وامكن شفاء ٨٣ حالة منها شفاء تاما .

● عقد مؤتمر للاطباء في لندن ، للبحث في اسباب نشوء السمنة ، وتخلص اعضاء المؤتمر الى ان اسباب السمنة الاصلية تعود الى الاكثار من الطعام وعدم سلوك الانتظام في تناوله ، بالرغم من ان هناك ٢٧ سببا اضافيا للسمنة ايضا ، تتناول عملية تمثيل المواد الغذائية في الجسم وبعض الاسباب العضوية التي ترتبط بالدماغ . وقد كتبت الدكتورة لوته تيفالد في مجلة « الطب والتغذية » عن اسباب السنة بالتفصيل ، وقالت بان ترهل الجسم واكتسائه بطبقة كثيفة من الدهن ، يعمل على امتصاص الطبقة الدهنية هذه ، لكمية كبيرة من السكر فيشعر الانسان البدين والحالة هذه بالجوع ، وينهال على التهام الطعام بلا حساب . ويزيد ذلك في وزن جسمه ويثقل الدورة الدموية ويحدث الاضطرابات في توازن المواد الزلالية في الجسم بصورة ملحوظة ، ويقوم الجسم في نفس الوقت بالاحتفاظ بالماء والصوديوم . وتكون نتيجة ذلك فتور حركة الجسم وتدني حاجته للطاقة بموجب ذلك ، فتكثر الطاقة الفائضة فيه ويدخل تغير نفسي عليه. ومن الغريب في الامر ان البدينين يعمدون دائما الى الاكثار من الطعام اعتقادا منهم بان ذلك يفيدهم في التغلب على همومهم فيزداد ترهل الجسم بذلك . وكثيرا ما يكون سبب الاكثار من الطعام البحث عن العقد الجنسية او التخلص من الاخفاق في الحياة الزوجية ، او عدم الشعور بالراحة داخل الاسرة او من الشعور بالانعزال الداخلي . واحسن شيء للتخلص من السمنة بلا اضرار، هو الاقلال من الطعام بقدر المستطاع .

● اضافت وزارة البريد الامريكية روح النعناع الى الصمغ الذي يوضع على ظهر طوابع البريد حتى يكون طعمه احلى عند لصقه على الخطابات .

● قالت جريدة برافدا السوفياتية ان خمسة من اقمار كوزموس الصناعية التي اطلقها الاتحاد السوفياتي دون ان يكون فيها انسان ستبقى في مدار الارض اكثر من ١٠،٠٠٠ سنة. وقد اطلق الاتحاد السوفياتي ١٠٣ اقمار كوزموس تحمل اجهزة علمية كجزء من برنامجه لارتياد الفضاء .



مجلة «« الاديب »» بعد ربع قرن

لمندوب «« الحياة »» الثقافي :

كان مفوض الدعاية لـ «« عصبة العمل القومي »» وساهم مع كمال جنبلاط في تأسيس الحزب التقدمي الاشتراكي وكان امين سر الحزب العام وساهم في تأسيس «« كتلة التحرر الوطني »» التي ترأسها عبد الحميد كرامي، وكان سكرتيرها العام ، وبرغم قصر تاريخ البير أديب السياسي فان السياسة دخلت في نفس الاديب وادبه وصار للادب عنده بعد تأسيس مجلة «الاديب» سياسة ويحدث ان السياسة ولاول مرة في لبنان تخدم الادب . فكيف حدث ذلك .

كانت «المكشوف» ابرز مجلة ادبية صدرت في لبنان قبل الحرب ، تركز على لبنانيتها كما كانت زميلتها «« الرسالة »» في مصر تركز على مصريتها ، وهكذا كان حال المجلات في البلدان الاخرى : العراق وسوريا والمغرب وغيرها .. كانت اقليمية السياسة تعكس ظلها على المجلات الادبية وكان الاتصال الادبي بين بلد عربي واخر ضيقا يقتصر على المتعمدين الاطلاع على نتاج هذا البلد او ذاك . فجاءت «الاديب» تحمل سياسة صاحبها العربية المنفتحة ، متخطية الاقليمية هادفة الى رفع الحواجز بين النتاج الادبي في مختلف الاقطار العربية وتقوية الاتصال بين ادبائها فاتحة ميدان الحوار الواسع من تبادل نقد ورسائل ، ومن عرض اساليب ادبية واراء وعقائد ، من مصريين وعراقيين وسوريين ومغربيين ولبنانيين .

ولم تقتصر «« الاديب »» على التعريف بالادباء الكبار ، بل ساهمت في خلق اسماء جديدة وخاصة في عالم الشعر مثل بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي وبلند الحيدري وغيرهم اصبحوا فيما بعد رواد الحركة الشعرية الجديدة في العالم العربي وذلك للنفس الشعري الجديد الذي كان يحاول ان يبثه صاحب «« الاديب »» نفسه منذ ان كان في مصر ، والذي نشر بعضه فيما بعد في ديوان سماه «لمن » وهي مجموعة شعرية لا تخضع لوزن او قافية وتختلف عن مقطوعات امين الريحاني النثرية في كونها اكثر اقترابا من السر الشعري.

في مستهل العام الثالث «« للاديب »» في كانون الثاني عام ١٩٤٥ كتب البير اديب يقول : «« انها اعجوبة ان يستمر «« الاديب »» على الصدور في مطلع كل شهر غير مبال بشتى العراقيل المادية وغير المادية».

فماذا نقول نحن عن «الاديب» وقد شارفت على انهاء ربع قرن وهي تصدر في مطلع كل شهر ضاربة الرقم القياسي بين المجلات الادبية العربية في تحمل مصاعب الشيخوخة المعنوية والمادية ، واذا عرفنا ان «الاديب» تستمر في الصدور دون اية مساعدة من الدولة او من مؤسسة تنفق عليها كما يحدث عادة ، عرفنا اي اخلاص من قبل البير اديب لهذه المجلة التي جعلها قضية حياته الكبرى .

فلا اخف اليوم حماس الرسالة الاولى في «« الاديب »» وطليعيه النفس الجديد في الادب وتحولت «الاديب» الى مجلة كلاسيكية تقليدية فانها تشارك مصير اغلب المجلات الكبرى في الغرب في كونها اصبحت مرجعا سجل ربع قرن من الحياة الادبية ليس في لبنان فحسب بل في الاقطار العربية ايضا. لقد تنازلت «« الاديب »» عن بعض الربح في ميدان لتعوضه في ميدان اخر وهذا ما يبرر كونها المجلة الوحيدة التي لم تمنع من الدخول الى اي بلد عربي طوال عمرها المديد .

البير اديب الذي يتربع اليوم فوق ستين عاما من الجهد والذي لا «يطلع» من البيت حتى يمكن «للاديب» ان «تطلع» كل شهر ، لا ينتظر مكافأة . ان «الاديب» الذي وضع كل طموحه فيها هي مكافأته الاولى ، لكننا نحن الكثيرين من الذين عرفوه واحبوه وقدروه نامل ان تشاركنا الدولة في مكافأته. فلسنا نرى اليوم اكثر منه استحقاقا لمثل هذه المكافأة .

جريدة «الحياة» ـ بيروت

•

عـرفانـا بـ «« الاديـب »»

البير اديب ، الذي يتربع اليوم فوق ستين عاما من الجهد ، والذي لا «يطلع» من البيت حتى يمكن «للاديب» ان تطلع كل شهر . لا ينتظر مكافأة .

ان «الاديب» الذي وضع كل طموحه فيها هي مكافأته الاولى .

توقفت عند هذه الاسطر من مقالة في مجلة «الاديب» وصاحبها البير اديب ، بمناسبة يوبيلها الفضي ، فقد مضى على صدورها شهريا وبانتظام ربع قرن ...

لكن ، سرعان ما امحت السنوات كانها ساعات ورأيت نفسي ، الصبية النهمة ، مفتوحة العينين والاذنين ، استمع والتقط وادخر كل ما كان يقال ، وينشد ، ويجادل به ، في مكتب الاديب ، عهد ذاك ، يوم كانت الاديب بستان الفكر في اوج انطلاقها ، وفي عنفوان اطلاقها اعنة الادباء والشعراء ...

لعلني كنت الفتاة الوحيدة المواظبة كل يوم على مكتب الاديب ، وكان الفضل في اتاحة تلك الفرصة لي ، يعود الى المغفور له نور الدين بيهم ، الذي كان ينتشلني من مخطوطاته في دار الكتب الوطنية ليصحبني الى الاديب وهو يقول لي :

ـ على من ستصبح صحافية ان تتعلم من «هنا» ...

و «هنا» كان بستان الاديب .

وكم كان البستان يانعا اخضر ، وكم انا مدينة لما قطفت من ندوات الاديب. اذكرها يوميا ، وكانما كانت للرواد غذاء الروح ، هنا يجلس باستمرار عفوي عبدالله العلايلي .

وهناك الدكتور نقولا فياض ، ومقابله الياس خليل زخريا ، وهنالك نور الدين بيهم ، وهنا وهناك الضيوف الادباء والمفكرون من مصر وبغداد والشام وحلب وخلف المكتب الطويل «محرك» القول والفكر البير اديب ، وانا قابعة ، كتلة من السمع والبصر ، اتعلم واحفظ واستوعب ، لكم اثارني ادب الجدال ، وذكاء المحاورة واعجبت بقوة المنطق ، وبجمال الكلمة .

وكم انتشيت بالشعر وطربت لطرفته ...

ان صاحب «الاديب» لا ينتظره مكافاة . ومتى كان الادباء من معدن «اديب» يطلبون وينتظرون المكافاة !

اريد ان اقدم هدية «للاديب » بعيدها ... باقة ورد ؟

لا ، فالورد يذبل ويفنى لتكن عرفانا مني بالجميل .

فما تعلمته من الاديب ، لا يزال ذخري وزادي !

جريدة «« الحياة »» بيروت — **جاكلين نحاس**

عيــــد .. « الاديـــــب » !

مجلة الاديب .. مجلة افردها صاحبها الاستاذ البير اديب ، لتكون مجلة ادبية ، خالصة للادب دون سواه ..

ومضى على هذه المجلة ، تؤدي رسالتها دون انقطاع ، مدة ربـع قرن من الزمان ، لم تنحدر يوما عن مستواها الرفيع ، ولم ترض يوما ان تنحرف ذات اليمين ..او تنحرف ذات الشمال ..

لم ترض ان تفعل ذلك..او قل : لم يرض صاحبها الاستاذ البير اديب ان يفعل ذلك ، وهو يرى بام عينه ، ان من يفعله يناله مـن الخير العميم ، ما يمكن له من ان يبني العمارة الشاهقة ، ويسكن الدارة الانيقة ، ويكون له الاتباع والاشياع ، ويكون له الخـدم والحشم ، وتكون له السيارة الفارهة ، والرصيد الذي لا ينقطع مدده في المصارف ..

نعم..لم يرض ان يفعل ذلك ، وهو يرى من اثاره ما ذكرت ،ويسمع من اخباره ما تمتليء به اذناه.. بل لم يرض ما هو دون ذلك ..

لم يرض ان تكون للاديب دار نشر ، تصدر او تتبنى نشر ذلـك النوع من المطبوعات التي امتلات بها الاسواق ، وتهافت المراهقـون وغير المثقفين على تلقفها .. لم يرض ان يفعل ذلك ..

لانه آمن ان الادب رسالة اسمى من ذلك بكثير .. اسمى من التجارة الرخيصة ، وترويج ما لا خير فيه ، مما يثير .. ولا ينير..وممـا يداعب العواطف ، ولا يصقل الذهن ..! ثم انه لم يرض ما هو اهون مـن هذيـن ..

لم يرض ان تكون «الاديب» وهي مجلة الادب الرفيع ، مسرحـا للاعلان الرخيص ، ومجالا للصورة المبتذلة ..وان في الاولى ما يضمن الربح الوافر ، والكسب الفزيـر.. وان فـي الثانية ما يستـدرج الكثيرين ، ممن يخدعهم البهرج ، ويجتذبهم كل برق خلب ، وكـل مشهد جذاب..

وبقيت «الاديب» حيث وقفت منذ اليوم الذي انشئت فيه .. وظل صاحب «الاديب» في مثالياته السامية ، لا يتنازل عنها قيد انملة .. وظل يكافح وينافح..وظل يناضل ويصاول ..

واستمرت «الاديب» طيلة ربع قرن ، تطل مع نهاية كـل شهر ، بالكلمة المشرقة ، والقول الرزين ، والادب الموجه الى اسمى الغايات.. وظلت مشرقة الجبين..عالية الرأس ..

فلا تدور حولها ريبة ، ولا يهمس الهامسون عنها بما يجري من وراء حجاب ، مما لم تعرف اليه سبيلا .. !

ومن اجل ذلك تداعى الكتاب ورجال الفكر في لبنان ، لتكريـم «الاديب» وصاحبها الاستاذ المجاهد بقلمه «البير اديـب » .. وان «الاديب» وصاحبها ..لجديران بأن يكرما ، وان يغالى في تكريمهما ..

ولما كانت «الاديب» للوطن العربي كله ، ولم تكن وقفا على لبنـان وحده ، فان من حق هذا الوطن ، بمن فيه من رجال الفكر ، ومـن فيه من مسؤولين يرعون الادب واهله .. ان يسهموا جميعا بتكريـم « الاديـب » وصاحبها ..

وحيا الله هذه المجلة الرفيعة ، وهي تجتاز ربع قرن من عمرهـا المديـد ، وتاريخهـا المشـرف ..

جريدة « فلسطين » القدس — محمد سليم رشدان

•

الفاجعة بكتاب بعد الفاجعة بقصيدة !

ما أظن احدا تالم مثلي للاديب الشاعر راضي صدوق عندما اعلن جزعه على قصيدة له حبسها عنه صاحب «القلم» العراقية الذي طلبها من الشاعر صدوق ولم ينشرها ، بسبب كون المجلة على حد قوله لـم تصدر ، ولكن هذا لا يمنع الاستاذ صاحب القلم من رد لهفة الشاعر صدوق باعادة القصيدة اليه وهو صاحبها ، بعد ان ينسخ الاستاذ خضر لنفسه عنها صورة ، ولعله يكون الان قد فعل بعد ان قرأ كلمة الاستاذ راضي في عدد «الاديب» السابق .

واما امتيازي انا على غيري بهذا التالم ، فسببه ان صديقي الاستاذ انور الجندي الاديب المصري المعروف كتب لي عن فاجعة ادبية كبيرة ضخمة اصيب بها من دار النشر للجامعيين في بيروت ، تعاقدت معه على طبع ونشر كتابه الثمين «معالم الادب العربي المعاصر» بشروط وقواعد لم تنفذ منها دار النشر المذكورة سوى الطبع والنشر والبيع ... واما حقوق الاستاذ الجندي كمؤلف سهر الليالي ، واديـب امين لفنه ، ونساخ وخطاط امضى الاشهر في الاقتباس والنقـل ، ومفكر عصر دماغه واسهد عينيه فـي الدرس والتحليـل والمقايسة والمقابسة ، فلا وكلا ، لانه لم ينل على كل ذلك من دار النشر المذكورة شيئا .. وقد كتب لي الاستاذ الجندي من القاهرة يوسطني لـدى دار النشر للجامعيين بطلب حقوقه واتعابه قائلا انه لا يزال منذ عشر سنين يكتب لتلك الدار طالبا حقوقه فلا ترد عليه ، ثم كلفني بمراجعتها ففعلت ، ثم واصلت الوساطة فأخفقت ، لان دار النشر التي نحـن بصددها تقول انها لم تبع من الكتاب شيئا ، فلم يسعني بعد هـذا الجواب سوى تصديقها ، والرضى بالنيابة عن الاستاذ الجندي بـأن تؤدي له دار النشر المذكورة قيمة اتعابه وحقوقه نسخا من الكتاب ، بدلا من المال النقدي ثم تعهدت ، بأن اتولى انا بالنيابة عنها ارسال تلك النسخ الى القاهرة .

هذا بعض ما كان مع دار النشر للجامعيين ..ولكن هل نجحنا ... كلا ، لانه صدر من ابن صاحب الدار الجامعية ما يستوجب المؤاخذة القانونية ليس فقط نحو مؤلف الكتاب ، بل نحو وسيط الخير الذي افترض انه يتحدث مع دار نشر وثقافة وعلم ... الخ .

فبالله عليك يا صاحب الراصد : اذا كان الشاعر راضي صدوق يكاد يجن حزنه على قصيدة واحدة ، ـ وهذا حقه لانها ذوب قلبه ـ ، فماذا يصنع الاستاذ انور الجندي المفجـوع بكتابـه المؤلف مـن ..٤ صفحة ، وليس بقصيدة واحدة ... لا اقول هذا استصغارا لشـان قصيدة قد يكون الشاعر قد نسجها في بضع سنين ، وقد تساوي عنده او عند ممدوحه ، عند عشاق الفنون الجميلة الاف الجنيهات، ولكن قلتها لتصوير فداحة المصيبة التي وقع فيها الاستاذ انور الجندي وهو ايضا بعيد عن فلذة قلبه ، الذي هو كتاب ادبي ضخم تعب عليه الليالي الطويلة ثم يراه في ايدي الناس جميعا الا بين يديه هـو الذي انجبه وسواه .

اني ابسط هنا القصة من الناحية العاطفية والناحية الادبية فقط ، واما الناحية القانونية ، سأتركها لاهل القانون والى «جمعية محبـي الكتاب » في العالم العربي ، والى جمعية « اصدقاء الكتاب العربي » بلبنان على الاخص . كما ان الدولة تحفظ للخبازين والطباخيـن وصناع الاخشاب ومكاتب السياحة حقوقهم على المجتمع مكلفة الان بعمل شيء لحماية اهل الفكر والفن .

ولا ادري ماذا يقول الدكتور عبدالله الطباع ووالده الحاج انيس الطباع ، وهما الركنان المؤسسان لدار النشر للجامعيين في تصرفات ثالثهما ، الا اذا كانا قد انسحبا من هذه المؤسسة ، وعند ذلك يتعين عليهما اعلان تنصلهما .ولكن بعد تسوية امور العقد القائم بيـن مؤسستهم وبين زميلنا وزميلهما الاديب المصري الاستاذ انورالجندي، الذي وثق بهما وبلبنان وادباء لبنان .

جريدة « الراصد » بيروت — وسيط مختار



بنـــك انـــترا ش.م.ل.

يتقدم من المواطنين ومن زبائنه الكرام في جميع البلاد العربية والاسلامية باحر التهاني واصدق التمنيات بعيد الفطر المبارك سائلا الله ان يعيده عليهم بالخير والبركات .

